

شرفة الهذيان

إبراهيم نصر الله

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

المدير الفنى

محمود الشيخ

مدير التحرير

محمد رضوان

سكرتير التحرير

محمد عبد العظيم

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

العدد ٦٨١ سبتمبر «أيلول» ٢٠٠٥ م - شعبان ١٤٢٦ هـ - توت ١٧٢١ ق

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج. م. ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال.
ويرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإدارة

القاهرة:
١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

المكاتبات:
ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج. م. ع.

تلكس:
Telex 92703 hilal u n

فاكس:
FAX: 3625469

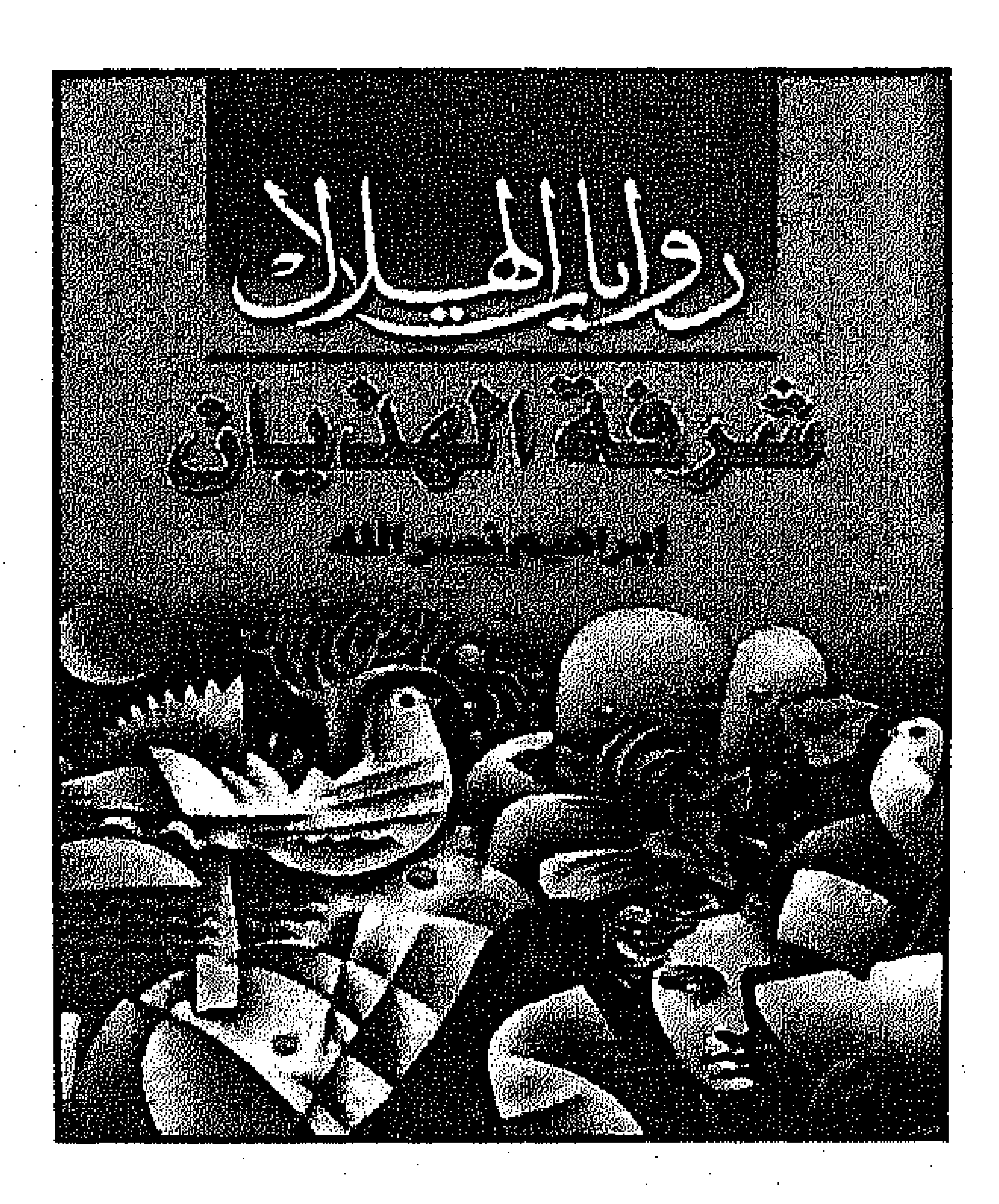
البريد الإلكترونى:
darhilal @ idsc. gov. eg

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ٢٥٠ ,١فلس - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريال - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين٥ ,٣دولار - سويسرا ٤ فرنكات.

شرفة الهذيان

إبراهيم نصر الله



تصميم الغلاف :

الفنان/ محمد أبوطالب

لوحـة الغلاف :

الفنان/ محمد حجى

ساهم فى كتابة عدد من صفحات هذه الرواية بشكل مباشر:
على نصرالله - ١٤سنة - ابن المؤلف
ومى نصرالله - ١٢سنة - ابنته
كما ساهما بطريقة غير مباشرة فى معايشتهما لعدد آخر من صفحاتها .

أغنية البداية

نعم، باستطاعتكَ أن تُغمضَ عينيكَ وأن تُديرَ ظهرَكَ؛ باستطاعتكَ أن تفقدَ صبركَ وأنتَ تبحثُ عن الريموت كنترول باحثاً عن محطةٍ أخرى تُطفئُ بها النارَ التى أشعلَتْها فجأةً قطرةُ العَرَقِ التى راحتْ تتحدرُ من أعلى رقبتكَ حتى آخرِ نقطةٍ من عمودكَ الفقرى. نعم... باستطاعتكَ أن تَلعنَ اللغةَ، تلكَ التى لم تُسْعفكَ بأكثر من كلمتينِ هما: الرعبُ والجحيمُ وأن تتلاشى بعدَ لحظاتٍ فى حديثِ أطفالكَ الموتى عن الاحتمالات الغامضة والمحتَمَلَة لبرامجِ سهرةِ الليلة؛ باستطاعتكَ أن تَتابعَ الكذبَ على الهواءِ مباشرة المدةَ التى تحتاجها كى تطمئن على المستقبل وتواصلَ السهرة مع أى فيلم تختار؛ لا بأس فَهُمْ لا يريدونَ منكَ أكثرَ من ذلك. باستطاعتكَ أن تذهبَ أبعدَ: أن تدخلَ فى حديث مُعادٍ وأن تكتشفَ المصادفةَ الغريبةَ فى كونكَ ميتاً مثل الآخرين فَهُمْ لا يريدون منكَ أكثرَ من ذلك. باستطاعتكَ أن تُقبِّلَ أطفالكَ أو لا تُقَبِّلهمْ قبلَ النومِ؛ تلكَ حريتكَ التى لن يتدخل فيها أحد؛ وأن تنامَ على جانبكَ الأيمنِ أو الأيسرِ وأن تحلُمَ بأجملِ ممثلة غير عابئٍ بعيونِ الأقمارِ الصناعيّةِ السّاهرةِ؛ تلكَ حريتُكَ التى لن

يتدخلُ فيها أحد. باستطاعتكَ أن تتَنـاولَ الإفطارَ فى السابعة أوِ العـاشرةِ وأن تتناولَ خـبزاً أبيضَ أو أسـمـرَ، لا فرقَ هنـا؛ تلك حريتُكَ الَتى لن يتدخَّل فيها أحد. باستطاعتكَ أن تمتَدحَ القمرَ دونَ أن يطلبـوا منكَ بصمـاتكَ العَشْر وفـصيلةَ دمكَ وخـريطةَ الوراثة؛ تلكَ حريتُكَ التى لن يَتدخّلَ فيها أحد. باستطاعتكَ أن تُحبَّ زوجـتَك أو تظلّ مـخلصـاً لذكـرى مـارلين مـونرو.. أن تَصطحبَ العـائلةَ إلى (بُرغـركنـغ) أو (فـرايد تشكن) وأن تُعلنَ انحيـازَكَ لأىِّ مشروبٍ غازىٍّ تُريد؛ تلكَ حريتكَ التى لن يتدخّلَ فيها أحد. باستطاعتكَ أن تفتحَ بيتـا فى الماضى وتأوى إليه، أو تُفكِّرَ فى سقفٍ قـرميـدى أحـمـرَ، أن تتـشـبَّثَ بسطح بيـتك الطينىِّ أو تَتطلَّعَ بلهـفـة إلى عـتـبـات الرُّخـام الجـديدة؛ تلك حريتـكَ التى لن يتـدخلَ فـيهـا أحد. باسـتطاعـتكَ أنْ.... ولكنْ حين يأتونَ.. تذكَّرْ: لـن تكـونَ أكثـرَ من كتلةِ العرى تلكَ، فوق كتلةِ العرى التى تحتَها فـوقَ كتلةِ العـرى الَتى تحتَـهـا، ولعلَّهمْ سيُتَمْتمُونَ بخـشـوع وهم يرونَ قطَـرةَ العَرَقِ تلك التى تنسـابُ من عنَقكَ نحـوَ آخـرِ نقـطةٍ خـفـيـة من عـمـودكَ الفـقـرىِّ إذْ يُشْرِعُونَ حمـاسـتَهم، وهـمْ يتضاحكونَ... مُتَطلِّعينَ لعتـمةِ كهفـك الصغير.

الأمـــر الغـــريب

فى طريقه لاستلام عمله الجديد، كان متفائلاً إلى حد لم يخطر له ببال، السّماء مضاءة بزرقة تُذَكِّر بمحيط، والأشجار أكثر خضرة مما رآها فى أىّ يوم مضى. لكن الشىء الوحيد الذى لم يكن يتلاءم أبداً مع جلال المشهد كان فرْطُ الصّمت.

صمتٌ عميق لا يليق بصباح يذهبُ فيه المرء لاستلام عمل جديد مرتدياً أفضل ملابسه، صمت يتدحرج حوله كُرات بيضاءَ تتجاوزه وتعود من جديد صاعدةً باتجاهه، تتجاوزه، يلتفتُ إليها، تصعدُ ارتفاعاتٍ لا تراها العينُ إلى أن تغدو أكثر علوّا من جبال المدينة كلها، ثم تتدحرج من جديد، ببطء، كما لو أنها لا تريد أن تجرح النُّور.

فجأة سمعَ فرقعةً صغيرة فى الأعلى، فتغيَّر كلُّ شىء، حدَّق فى السّماء الزرقاء، فى وسط السماء الزرقاء تماماً، ورأى ذلك المشهد الغريب (ريش يتطاير فوق رأسه، على ارتفاع كبير) وقبل أن يُدركَ ما حدَث، أحسَّ بشىء ما يرتطم به، شىء خفيف، حين التفتَ إلى موقع سقوطه فوق كتفه الأيمن أدركَ سريعاً أنه قطْرَةُ دم.

ارتفع نظره ثانية نحو مركز السماء، ورأى كتلة الريش بصورة أوضح مُعلَّقَةً فى الفراغ.

التفتَ حوله باحثاً عن رجُل ما، ببندقية صيد ما، رجُل ماهر يستطيع أن يصيبَ عصفوراً صغيراً بهذه الدِّقة.

لم يكن هناك أحد.

دار ثانيةً حول نفسه.

لم يكن هناك أحد.

كـان متـأكداً من أن أفكاره كانت مـوزّعَة فى حلم يقظتـها الطويل حـول الوظيفة الجديدة التى يذهب إليها على مضض.

فهى فى النهاية أول وآخر الفرص التى سنحتْ له.

كان متـأكداً بأنه ابتـعد وأن أشـياء كثيرة تلاشتْ حـوله بعد أن اطمأن لوجود زرقة السمـاء وخضـرة الأشـجار على ذلك النحو الذى لم يره من قبل، فاعتبر ذلك من أمارات الخير.

كان متـأكداً من أنه لم يكن هناك، حين كانت كراتُ الصّمت تتدحرج على جانبيه بطريقة لم يُدرك معناها.

لكن الأمـر الذى بقى يُحيِّره، أن شـروده لا يمكن أن يصـمد أمـام صـوت انفـجار طلقة، وقـد تمكنتْ أذناه من التقـاط صـوت الفرقـعة الصـغيرة تلك.. فرقعة انفجار جسد ذلك الطائر الذى كان يُحلِّق، لا بدَّ، مصادفة، فوق رأسه.

لم يقبل لنفسـه أن يبدأ يومـاً مضـاءً بكلِّ هذه الزرقة وبكل هذه الخضـرة بلحظة هذيان.

امتدتْ يده إلى جيبه، أخرج منديلاً ورقيّاً أبيض، مسحَ قطرةَ الدم، ونَدِمَ؛ ها قد أصبحتْ أكثر اتساعاً.

قرَّبَ الطرفَ الآخر من المنديل لشفتيه، بلله ببعض لعابه، مسح البقعةَ ثانيـة، وكـرر الأمـر ثلاث مـرات، وعندمـا بدا له أنه نجح فى ذلك وراح يتـأمل موقعها برضى لا بأس به،

سقطتْ قطرةٌ أخرى من الدّم

فى المكان نفسه

وراحتْ تتَّسعُ بسبب رطوبة قمـاش الجاكيت بتسارع أفسد براءةَ وهدوء لونه العشبى الفاتح.

الأمر المهم

– ها أنتَ أيضاً يحدثُ لك الأمر نفسه. قال.

وأضاف: غريب!

وكانت عيناه قد استقرتا على كتف (رشيد النِّمرِ).

وبتسارع غير عادى قطَعَ الرجل العجوز حبلَ أفكاره الذى بدا وكأنه أخذه بعيدا بتلك الكلمات القليلة، الكلمات التى لا بدَّ من قولها فى حالة كحالته، وقد أنهى خدمته ووقف واهناً يسترجع الماضى، خطفاً، كى لا يلحظه أحد. الكلمات الوصيّة التى لا بدّ من أن تُقال للمسؤول الجديد الذى وصل أخيراً لتسلُّم الرّاية:

سيزوركَ صحفيون لتصوير المكان، وها أنا أحذِّرك، لا تسمح لأىّ منهم أن يصعد إلى سطح المبنى ليلتقط الصّور. اجلبْ له تلكَ الطاولة، ضعْها فى وسط الساحة، ثم دعْهُ يعتليها ويلتقط الصّور التى يريد من فوقها.

وأخذ الرجل العجوز نَفَساً عميقاً وسأله :

– فهمتَ؟

– بالتأكيد.

شكره رشيد النّمر كثيراً على هذه النصيحة الغالية.

لكنه لم يجرؤ على أن يسأله: وما السبب؟

لا لشيء، إلا لأن التحذير بدا على درجة من الخطورة لا تحتمل ترف الأسئلة.

وحيَّره كثيراً، أن الرّجل العجوز، حين استدار في طريقه للباب الخارجي، لم يصافحه.

(ولعل هذا ما جعل الأمر في نظره أكثر خطورة)

لكن ذلك لم يُفْسِد عليه فرحة الحصول على هذه الوظيفة.

***

بعد انتهاء الدوام، أغلق بوابة المركز جيداً وقررَ التجوّل حوله لمعرفة المكان أكثر..

ليس هناك الكثير

(هذا ما رآه على الأقل)

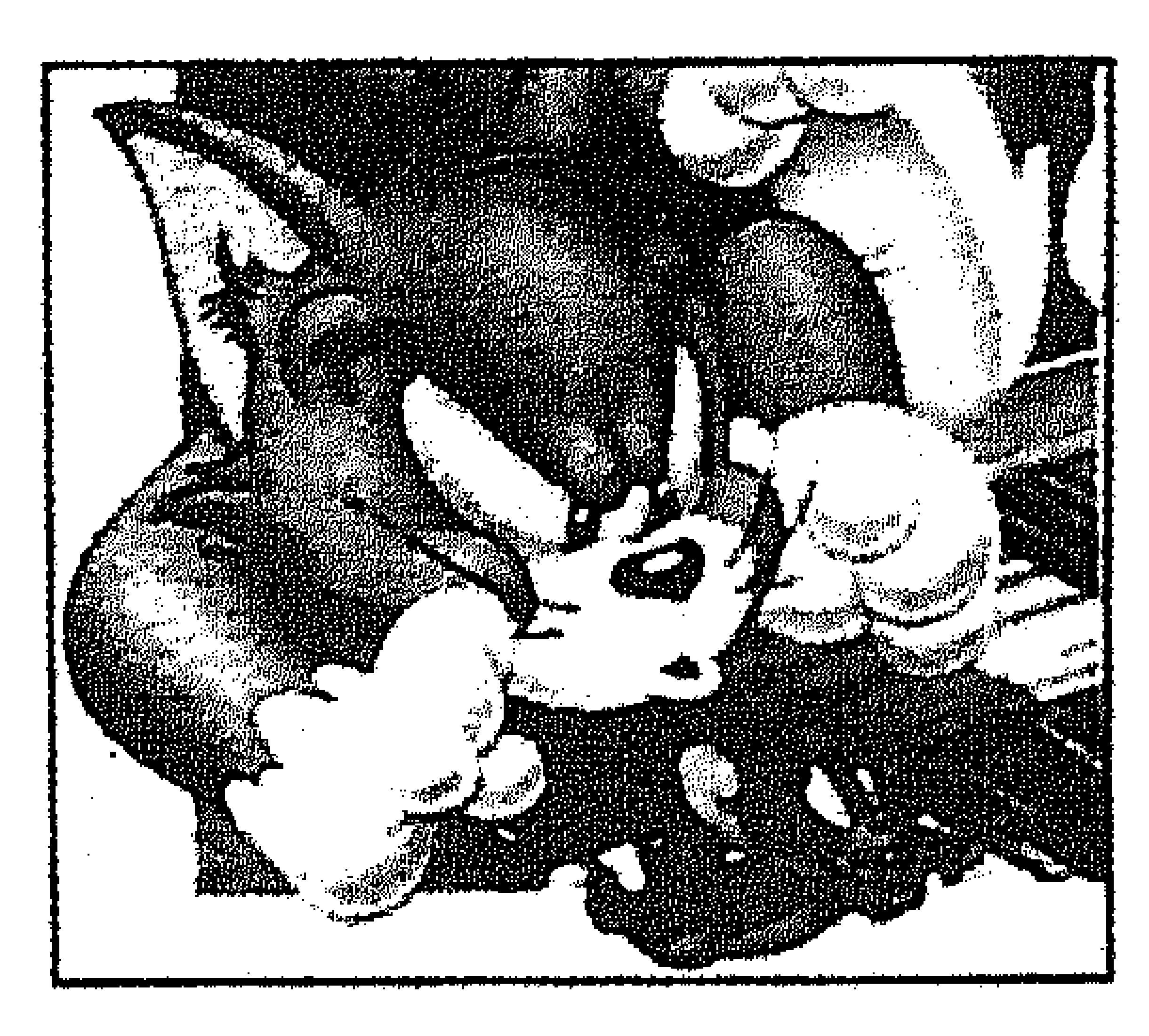
دكاكين، سوق خضار، موقف سيارات عمومية، عيادة، مدرسة للذّكور وأخرى للإناث، أربع صيدليات، مركز دفاع مدني، مخفر شرطة، ناد رياضي، مخبز، خمسة مطاعم متلاصقة، شقق فارغة للإيجار، ساحة ترابيّة تتجمّع فيها النفايات وتفوح من جوانبها رائحة البول.

لا شيء.. لا شيء أبداً.

رفيف أجنحة

الذين لم يسمعوا، من قبل، رفيف أجنحة الطيور
ولم يلاحقوا الريح صغارا، فى أزقة المدن
ولم يعرفوا طعم القُبْلة إلاّ بعد الثلاثين
كانوا سيفرحون مثله!
الذين لا يعرفون موعد شروق الشمس
أو تلك اللحظة الحرجة التى يصيح فيها الدِّيك
ولم يتساءلوا يوماً عن سرٍّ تلك الوحدة التى يعانيها صقر وحيد على
شرفة مهجورة
كانوا سيفرحون مثله!
الذين لا تتذكَّر أقدامُهم من الطُّرق
غير غبارها
ومن السَّير تحت النجوم
غير الخوف من العتمة
ومن تأمُّل الزهور
غير موتها المبكر
كانوا سيفرحون مثله!
الذين يزرعون النباتات الصغيرة فى زوايا البيوت
لكى تذكِّرهم بالغابة

ويُربّون السلاحف البريَّة تحت مقاعد القش كي لا يتذكّروا الخيول
ويركضون، موضعياً، في الغرف الصغيرة كما لو أنهم على شاطئ البحر
كانوا سيفرحون مثله!
الذين يرتدُون الدُّروعَ الثقيلة كلما ذهبوا للقاء امرأة
والنظّارات السوداء في صالة السينما لإخفاء الدمع
خشية النهايات السعيدة
ويُخْفون بدراية المتعَبين مخلّفات الابتسامات المُختَلَسة
أمام (توم آند جيرى)



كلّما ذهبوا صباحاً للعمل
كانوا سيفرحون مثله!
الذين لا ينظرون إلى المرآة، إلا ليتأكّدوا من أنهم لم يزالوا هنا
ويُقَلِّبون الوثائقَ عندما تغفو الزّوجة كي لا ينسوا أسماء أولادهم
وعلاماتهم الفارقة التي دوَّنتْها الدّولةُ
كانوا سيفرحون مثله!
الذين يخطئون كثيراً بأسماء أولئك الذين يلتقونهم

واثقين من أنهم لن يروْهم ثانيةً

ويحترسون من غوايات أحلامهم فى الليل

ويخشون أكثر أحلام اليقظة

ويسهرون بين أسرَّة الأبناء ببنادق سريعة مهيأة لإصابة الأطياف

كانوا سيفرحون مثله!

لكنه استيقظَ قبل هؤلاء كلهم

الزَّهْريَّة الفارغة بجانبه تهتز

ونظرة أبيه المعلَّقة بمسمارين تتأرجح أمامه شامتةً

نظارتُه تزحف باحثةً عن عينين

والأولاد يرتفعون ويهبطون نائمين فوق أسرَّتهم

والمرأة، أعنى زوجته، تشير بإصبعها لشىء فى الفراغ وتواصل شخيرها برائحته الكابوسية

الزهورُ على اللحاف تتفتَّح صاعدةً دون ورَع باتجاه أنفه

وشاشة التلفاز فجأة تضىء والمذيعة التى كم أحبّها تُعلنُ بكلماتها العذْبة

:بداية عصر جديد.



منذ زمن بعيد كان ينتظر، ولعله الوحيد الذى حينما كان يخرج للشرفة ويتأمل المدى، لم يكن يبحث عن شىء، غير هذا الذى يصل أخيراً. وإذا ما أردنا تلخيص الأمر بكلمتين اثنتين.. وثلاثين معنى يفترس الواحد منها الآخر سنقول:

كأن (جودو)* وصل.

قد لا يعرف رشيد النمر شيئاً كثيراً عن جودو

وقد لا يتذكَّر اسمَهُ بعد لحظات إذا ما سمعه

لكنّه لن يختلف معنا

فى أن جودو وصل

الشّرفة كانت تتأرجح

لكنها لم تكن تُفكّر بشىء غير أن تسبقَهُ

أما حبال الغسيل فقد التفَّتْ على بعضها البعض

وقد أرهقتْها تلويحاتُ أكمام القمصان

وركلاتُ أرجل «البناطيل» التى بدَتْ وكأنها فى واحدة

من مباريات الشوط الأخير لكأس العالم.

أما العصفور الرابض تحت شبَكها الحديدى

فقد كان يفكِّر فى ذلك الذى يُمْكِنُ أن يفعله عصفور فى موقف كهذا

لكن الشىء الوحيد الذى لم يخطر بباله:

أنَّ له أجنحة!

---

*جودو اسم تلك الشخصية الغامضة المُنتَظَرة فى مسرحية صموئيل بيكيت (فى انتظار جودو).

يوميات - ١

امرأته قالت له: أريد أن أدخّن سيجارة.

- وما الجديد فى الأمر؟

- إننى أشاهد المسلسل. ولذلك باستطاعتكَ أن تذهب إلى المطبخ وتنتظر هناك انتهاء سيجارتى.

ذهب للمطبخ.

حين عاد، كانت زوجته قد اختفتْ كما لو أن الدُّخان الذى يتصاعد على الدوام منها حَمَلَها وألقاها بعيداً.

كانت فى صِباها أشبه بمنفضة سجائر.

هكذا كان يحسّ كلّما قبّلها،

أما الآن فإنها تشبه مدخنة.

كم كره المطربة الناعمة (نجاة الصغيرة)، التى كانت من قبل، واحدة من أقرب المطربات إلى قلبه عندما تجرأتْ وغنّتْ:

(على المقاعد بعضٌ من سجائره

وفى الزّوايا بقايا من بقاياه)

وتساءل بسخط: كيف لها أن تنام وفى الغرفة سجائر مطفأة؟!!

يومها، وقف فى الشرفة ونثر أشرطتها فى الهواء حبالا بُنيَّةً لامعةً بما فيها من أغنيات يحبّها، حتى تلك، أغنيته المفضّلة (ساكن قصادى وبحبّه).

حين عاد من المطبخ

قال له الأولاد: نريد أن نشاهد توم آند جيرى ولذلك باستطاعتك أن تذهب إلى المطبخ وتنتظر هناك حتى ينتهى العرض..

- لا بأس. سأشاهده معكم.

- لا. أُمّنا قالت لا تَدَعوه يشاهد أفلاماً كهذه. هذا يعنى أن تتحوّل بالنسبة لها إلى ابن آخر، بدل أن تلعب دورك كزوج وأب. ثم راحوا يصرخون باسمها إلى أن أطلتْ من داخل سحابة الدّخان السوداء: ماذا؟!

- ألم تقولى لنا لا تَدَعُوه يُشاهد أفلاما كهذه؟

راحتْ تنظر إليه بصمت حجرىّ.

بحث عن ابنته، تلك التى لا تتأخّر عن مدّ يد العون له، بصمتها الغريب، كلما احتاج لذلك، لم تكن بينهم.

- لن تنفعكَ تلك التى لا تستطيع أن ترى أبعد من أنفها. قال ابنه الصغير وقد أدركَ ما يريد.

ذهب للمطبخ.

وحين لم تنته الحلقات، نام.

الأمر الأهم

بعد يومين سمع طَرْقاً صاخباً على الباب الخارجى للمركز.

انطلق مُسرعاً، فقد كانت هذه هى المرّة الأولى التى يَطْرُقُ فيها أحد الباب منذ يومين!

كان الرجل العجوز بالباب واقفاً يصفعُ جبينه بقوة مُردّداً: يلعن الشّيطان!! يلعن الشيطان!! نسيتُ أن أقول لكَ الشّىء الأهم بعد أن شُغِلْتُ عنه بالشىء المهم!

نظر رشيد النمر إليه وقد دبَّ الفَزَعُ فيه أكثر، ووجد نفْسَه يلعن اليوم الذى جاء به إلى هنا، اليوم الذى جعله يَقْبَلُ بوظيفة كهذه لا علاقة لها بتخصّصه أو برغبته أو حتى بهواياته! هذه الوظيفة التى لم يفهمْها، ولم يفهم أبداً ما عليه أن يقوم به حين يؤديها، غير أن يكون فى هذا المكان. المكان الذى أطلقوا عليه اسماً كبيراً (المركز الإعلامى).

اجتازَ العجوزُ عتبة الباب الخارجى، حين وجد أن رشيد النمر لم يَدْعُهُ للدّخول، ولكنه قبل أن يفعل ذلك نظر يميناً، شمالاً وخلْفاً

بفَزَع لا يَخفى، وبخطوات سريعة لا تنتمى لعمْره، استقرَّ أخيراً وسط الساحة.

– ما نسيتُ قوله ، وعليك أن تتذكَّره جيداً، فأنت شاب ولم تفقدِ ذاكرتَك بعد.

وصمتَ قليلا مُطلِقاً أذنيه ترصدان الأصوات فى المكان وعينيه تبحثان عن ظلال.

– منا نسيتُ قوله ان بإمكان الذى يجيئكَ لالتقاط الصُّوَر، بإمكانه أن يوجِّه الكاميرا إلى الشَّمال ويُصوِّر، إلى الجنوب ويصوّر، إلى الشّرق ويصوّر، إلى السّماء ويصوّر! أما إلى الغرب فإياك ثم إياك أن تسمح له بذلك. فهذا ممنوع.. ممنوع تماماً، أعنى تماماً تماماً.

ولأن المهمةَ انتهتْ، وقد كان حريصاً على إنهائها بأقصى سرعة ممكنة، فقد استدار الرجل العجوز قاصداً الباب، وقبل أن يصله استدار، ومدَّ له يده مصافحاً، فى حين كان وجهه مضاء بابتسامة يحيط بها الشعر الأبيض لشاربه ولحيته التى مرَّ عليها يومان بلا حلاقة.

– لقد تذكَّرتُ حينما خرجتُ قبل يومين أننى لم أصافحك، وبقيتُ أتساءل كيف حَدَثَ ذلك، إلى أن تذكّرتُ أننى نسيتُ أن أقول لك الشيء الأهم؛ ولعل هذا حَدَثَ بسبب محاولتى أن أتذكَّره دون جدوى.

وصمت قليلا.

ثم سأل: هل باركتُ لكَ بوظيفتك الجديدة؟

– لا.

أمــــام الشمس

- كنت أظن أننى لم أفعل. مبروك. ألف مبروك!
من قديم ألقت المدينةُ قدميها على حافة السَّيل
والتهمتْ أشجارَها أمام الشمس
كى لا تنهض الخُضرة فى الليل
وتفاجئهم نائمين بما تبقّى فيها من ماء.
من قديم
أعدَّ الرجال خزائن مضيئة
وحشروا فيها ظلالهم
وسُمْرَةَ نسائهم
وشَعرَ بناتهم الأسود
والضّحكَ الذى لم يكن له ذات يوم سبب
وخرجوا لمكاتبهم مطمئنين.
من قديم
لم يقعوا فى خطيئة أن يكون هنالك شىء
أعلى من قاماتهم
حتى لوحات الإعلانات
كى لا تُساورهم أنفسُهم أن ينظروا للأعلى
من قديم
ربطوا القيلولة بحبال قوية
ورفعوا الأسْيجَة حول أجسادهم

وحرصوا أن يكون ثمة واحد منهم، دائماً، ساهراً في الظهيرة بعينين حمراوين..

(لطالما ردّد: إن أردتَ العيش طويلا هنا

فما عليك إلاّ أن تحذر ابتسامة المرأة

والطُرُقَ الحمقاء التي تجرُّكَ إليها الأحلام)

من جديد

جاءه الشرطي ببعض الأشلاء

وقال له: احرص على أن تدفنها عميقاً

وحين سأله: وما علاقتي بهذا؟

(ونَدِمَ بعد ذلك كثيراً على السؤال)

قال له الشرطي: هذا حلمٌ عَبَرَ شرفةَ بيتك العالي بعد منتصف الليل.

وحين قال للشرطي: إنه لم يحلم.

(ونَدِمَ كثيراً لأنه قال ذلك)

قال له الشرطي: أتريد القوْل إنك تعرف أكثر مني؟

وحين لم يُجبْ أضاف الشرطي: وهل أنتَ واثق من أن أبناءك لم يحلموا أو زوجتك، في غفلة منك؟!!.

قال: بالتأكيد.

– ولماذا؟ سأله الشرطي بغضب.

– لأنني قتلتُهم.

– وهل دفنتهم كما ينبغي؟

تلعثم: غير متأكد.

– عُدْ لأسرتِهم وتأكد. قال له الشرطي بلطف باغته.

ولم يكن ثمة سبب للطفه غير أن هذا الشرطي

مثل بقية الشرطة هنا

يعرفون جيداً أن هذا الخطأ الذي وقع فيه رشيد النمر

هو واحدٌ من الأخطاء الشائعة في هذا البلد، كسواه، لا أكثر.

الأمـــر الأغرب!

مرَّ وقت طويل على قَطْرَتي الدَّم التى كانت تفصل بينهما ثلاثُ دقائق على الأقل، بحيث يمكن القوْل: لقد نسيهما تماما.

أشرع باب الشّقة الصغيرة المُعَلَّقة بقضبان الحديد وكتل الإسمنت جيداً فى الدَّور الثالث وهبط الدرجات مُحاذراً، ما استطاع، الارتطام بحديد الحمايةِ الذى تفوح منه رائحة الدّهان منذ يومين.

جاره الدكتور، أستاذ العلوم الاجتماعية، كان يصرُّ دوماً على أن يكون المكان أنظف: أبواب الشّقق، باب العمارة، وأن يكون الممرُّ الصغير الذى يوصِل البناية بالشارع مضاء باستمرار على نحو مثالى.

كانت المشكلة الوحيدة التى استسلمَ أمامها هى المصعد، فبعد محاولات كثيرة لإصلاحه، باءتْ جميعُها بالفشل، أصبح، أحياناً، يغضّ الطَّرْف عن هذا النّقص الذى كان يُصيبُ العمارةَ فى الصميم. لكنه لم يستسلم بسهولة، إذ بقىَ مُصرّاً على أن المصعد خُلِقَ ليصعد، إلى أن تعطّل ثلاث مرات وهو فى داخله، وحين خرج بمساعدة من الجيران مرّةً، وبمساعدة من رجال الدفاع المدنىّ مرتين، قرر أن يتعامل مع المصعد كما لو أنه لم يكن موجوداً فى البناية أصلاً، لا لشىء، إلاّ لأنه كان يخرج فى كل مرة منه بهيئة مزرية تماماً وقد فاض عَرَقُهُ وأغرقه وتناثر شعر رأسه وبدتْ حلاقتُه لذقنه، التى لم تمض عليها ساعتان، بشعة إلى حدٍّ لا يُحتمل.

فقط، لو كان لهذه البناية مصعد. ألا ترى بأن الوضْع كان يمكن أن

يكون أفضل بكثير؟ هكذا كان الأستاذ الجامعى يُردّد فى أوقات متباعدة، وقد أحسَّ أن الجيران نسوا حكاياته الثلاث مع هذا القفص العجيب، القفص الذى يحملك بجناحيه ويهبط بك كما لو أن لكَ أجنحة.

أما الشىء الأكيد، فهو أن أناقة الدكتور لم يعد يمسّها أىّ سوء منذ ذلك اليوم البعيد الذى توقّفَ فيه المصعد بين الدوريْن الثالث والرابع، ومع الأيام استعاض عن ذلك الفقدان بحضور نظافة الممرّ والدرج والحائط الذى يحاذيه ولمعان شبك الحديد الأسود مُتقن الصُّنع.

***

خروج رشيد النمر من ممر البناية، دون أن يلامسَ الدّهان، كان أمراً مفرحاً بحدٍّ ذاته، أمراً يمكن الحديث عنه طويلا، لا لشىء! إلا لأنه كان فى كلّ مرة، وفى اللحظة الأخيرة ينسى أمر الدّهان فيلوث إحدى يديه أو أطراف ملابسه.

سار فى طريقه المعهود، مبكراً، قبل الجميع.

كم كان ذلك يبعث فيه أحاسيس رائعة ليس أولها أن هذا الشارع له.

كل شىء كان يسير بهدوء، ولم تكن الأمور قد أصبحتْ معقَّدة، كما وصلتْ إليه فيما بعد، بشأن العصافير.

(سنأتى على ذِكرها لاحقاً)

بمجرد أن أنهى الشارع الفرعى الطويل الذى تقع فيه البناية، الشارع الـ Dead End انعطفَ، كما يحدث كل يوم نحو الشارع الرئيس، أشجار الحور على رصيفيه تتخللها بعض أشجار الصنوبر والسّرو وأشجار النخيل، والبدعة الجديدة التى اكتظّتْ بها معظم الأرصفة: زيتون الشوارع.

(من شرفته يمكنه أن يَرى رأس شجرة نخيل غير مثمرة وجانباً من شجرة صنوبر غير مثمرة أيضاً..)

وقبل أن يضع قدمه على حافة الشارع فى طريقه للجهة الأخرى، سَمِعَ تلك الفرقعة المكتومة، وحين استدار نحو مصْدر الصوت باغتته قطراتٌ ساخنة لطَّختْ وجهه وقميصه الأبيض الذى كواه بنفسه مساء اليوم السابق وعلّقه بحرص في المكان المناسب.

أخرج المنديل الورقى الأبيض من جيبه كالعادة..

مسح وجهه..

وحيَّره أن دَمَاً بهذا المقدار يمكن أن يحتضنه جسدُ عصفور.

ألقى بالمنديل الأبيض على الطريق.

تلفّتَ حوله..

لم يكن هناك أحد.

أخرج المنديل الثانى، وقبل أن تصل يده للقميص أدركَ يأسَ محاولته. كان تنظيفه أمراً مستحيلاً.

تلفَّتَ إلى شجرة الحَوْر.تلك التى شَهِدَتْ الانفجار الصغير، خائفاً أن يتكرر الأمر بعد دقائق ثلاث كما حدثَ فى المرة الأولى.

انتظرَ!!

لم يحدُثْ شىء

ومرَّتْ سيارة مُسرعة، خُيِّلَ إليه أن مسّاحات زجاجها الأمامي كانت تتحرك بتسارع كبير.

حمد الله أنه لم يزل قرب البيت.

عاد.

أشرع الباب بسرعة، عَبَرَ الممر بسرعة، خلع قميصه أمام الحمَّام بسرعة. انعطف إلى غرفة النوم بسرعة. كان شخير زوجته يتصاعد..

طمأنه هذا.

امتدت يده لباب الخزانة، فتحه، فأصدر ذلك الصَّريرَ المجنون. توقّف قليلاً قبل أن يفتحه تماماً، لم تصحُ امرأته، واصلتْ يدُه العمل. تواصل الصرير. توقَّفَ. تناول أول قميص لامسته يده وخرج نحو الممر تاركاً باب الخزانة مُشْرعاً.

كانت الغرفة معتمة، حيث الأباجور شبه مغلق؛ فكَّر أن يعود ليُغلقَ باب الخزانة..

ستصطدم به إذا ما نهضتْ فى ظلام كهذا.

لم يعُد!

بسرعة راح يكوى القميص فى صالة الجلوس حيث المكوى هناك دائما وطاولته.

ارتداه بسرعة، اتجه للباب، وقبل أن يصله التمعتْ فى ذهنه صورةُ تلك المظلة المورّدة. عاد، وقد كان يعرف مكانها تماما حيث حُشرَتْ فى الزاوية البعيدة بجانب الخزانة.

استلَّها من بين الأشياء الكثيرةِ المحيطة بها على وقْعِ شخير امرأته.

وخرج.

مَنْ يعرف متى يتكرر أمرٌ كهذا؟

حين أصبح فى الشارع، سمع غناء قادماً من الأعلى، غناء عالياً، ولم يكن بحاجة للكثير من الفطنة كي يعرف مصدره.

أخذ نَفَساً عميقاً وهمس لنَفْسِه: أهذا وقته؟!!

تريد غناءً إذن!

قبل زمن طويل قالت له زوجته بحزم:

إنهم يريدون كلباً.

حاول أن يبدو طبيعياً ما استطاع.

أكد لهم: العصفور أجمل. كما أن صوته أكثر نعومة. أما فيما يتعلق بقضاء الحاجة فإن ما يخرج من كلب فى المرة الواحدة يُعادل ما يخرج من ألف عصفور على الأقل.

أصغرهم قال: ولكنّ الكلب ينبح أما العصفور فلا ينبح.

فقال له بحزم: والعصفور يُغنى أما الكلب فلا يغنى.

فرد الصغير: تريد غناء إذن.. (أوكى). هكذا نطقَها بالإنجليزية، فبدتْ أشبه بتهديد.

فى حين كان ابنه الكبير ساهِماً كعادته.

***

منذ طفولته

كان رشيد النمر يُفكِّر بوجود عصفور فى البيت،

عصفور له،

وحين لم يستطع،

راح ينتظر اللحظة المناسبة ليكون له واحد بعد أن أصبح أباً، وها قد

حصل على وظيفة لا تجعل العصفور يغيب عن باله. ولم تكن هناك مناسبة أفضلَ من إلحاح الأولاد الذى انبثق فجأة:

نريد كلباً.



قال: ولكننى أريد عصفورا؟

قال الصغير : ولكننى أحذّرك فلقد رأيت صقراً يتجوّل فى سماء المنطقة.

– وما الذى يمكن أن يأتى بصقر إلى هنا؟

– لقد رأيته، وعلى أن أحذّرك.

– تحذّرنى من ماذا؟

قال الصغير : ممكن نشترى عصفور وممكن ما نشترى عصفور، إذا ما اشترينا عصفور ما فى مشكلة، وإذا اشترينا عصفور فى مشكلتين!! ممكن نحطّه فى البلكونة، وممكن نحطه جوّه البيت، إذا حطيناه جوّه البيت ما فى مشكلة وإذا حطيناه فى البلكونة فى مشكلتين!! ممكن يكون فى صقر فى المنطقة وممكن ما يكون فى صقر فى المنطقة، إذا ما كان فى صقر ما فى مشكلة وإذا كان فى صقر فى مشكلتين!! ممكن الصّقر ما يشوفه

وممكن يشوفه ، إذا ما شافه ما فى مشكلة وإذا شافه فى مشكلتين!!
ممكن يكون الصقر جوعان وممكن يكون شبعان ، إذا ما كان جوعان ما فى مشكلة ، بس إذا كان جوعان فى مشكلتين !! ممكن يجي يوكله ، وممكن ما يجي يوكله ، إذا ما أجا يوكله ما فى مشكلة ، بَسْ إذا أجا يوكله في مشكلتين !! ممكن يقدر يقتله وممكن ما يقدر يقتله ، إذا ما قدر يقتله ما فى مشكلة ، بس إذا قدر يقتله فى مشكلتين!! ممكن أكون ما بحبّه، وممكن أكون بحبّه ، إذا ما كنت بحبّه ما فى مشكلة ، بس إذا كنت بحبه فى مشكلتين !! ممكن ما أزعل عليه وممكن أزعل عليه، إذا ما زعلت عليه ما فى مشكلة ، بس إذا زعلت عليه فى مشكلتين !! ممكن يروح الزّعل بسرعة، وممكن ما يروح الزّعل، إذا راح الزعل بسرعة ما فى مشكلة، بس إذا ما راح فى مشكلتين!! ممكن ما أُصاب بالكآبة ، وممكن أصاب بالكآبة ، إذا ما أُصبت بالكآبة ما فى مشكلة، بس إذا أصبت بالكآبة فى مشكلتين!! ممكن تروح الكآبة بسرعة، وممكن ما تروح الكآبة بسرعة، إذا راحت ما فى مشكلة، بس إذا ما راحت فى مشكلتين!! ممكن إتْأَثّر على حياتى، وممكن ما اتأثّر على حياتى، إذا ما أثّرتْ ما فى مشكلة بس إذا أثّرتْ فى مشكلتين!! ممكن أنْجَنْ وممكن ما أنجن، إذا ما انجنيت ما فى مشكلة، بس إذا إنجنيت فى مشكلتين!! ممكن أنجن على الآخرِ وممكن ما أنجن على الآخر، إذا ما انجنّيت على الآخر ما فى مشكلة، بس إذا انجنّيت على الآخر فى مشكلتين!! ممكن ما تحطّونى فى مستشفى مجانين وممكن تحطّونى فى مستشفى مجانين، إذا ما حطيتونى فى مستشفى مجانين ما فى مشكلة، بس إذا حطيتونى فى مستشفى مجانين فى مشكلتين!! ممكن

أحب مستشفى المجانين وممكن ما أحب مستشفى المجانين ، إذا حبّيت مستشفى المجانين ما فى مشكلة، بس إذا ما حبّيت مستشفى المجانين فى مشكلتين !! ممكن ما أفكِّر أهرب وممكن أفكر أهرَب ، إذا ما فكَّرت أهرب ما في مشكلة بس إذا فكرت أهرب فى مشكلتين!! ممكن أحاول أهرب وممكن ما أحاول أهرب ، إذا ما حاولت أهرب ما فى مشكلة ، بس إذا حاولت أهرب فى مشكلتين !! ممكن ما أقدر أهرب وممكن أقدر أهرب ، إذا ما قدرت ما فى مشكلة، بس إذا قدرت أهرب فى مشكلتين!! ممكن يشوفونى الحُرّاس وممكن ما يشوفنى الحرّاس ، إذا شافونى الحرّاس ما فى مشكلة ، بس إذا ما شافونى فى مشكلتين !! ممكن يحكوا مع الشرطة وممكن ما يحكوا مع الشرطة، إذا حكوا مع الشرطة ما فى مشكلة، بس إذا ما حكوا فى مشكلتين !! ممكن أرجع ع البيت وممكن ما أرجع ع البيت، إذا رجعت ع البيت ما فى مشكلة ، بس إذا ما رجعت ع البيت فى مشكلتين!! ممكن أقدر أتخبا منيح وممكن ما أقدر أتخبا منيح، إذا اتخبّيت منيح ما فى مشكلة بس إذا ما اتخبّيت منيح فى مشكلتين!! ممكن يلاقونى الشرطة وممكن ما يلاقونى الشرطة ، إذا لاقونى ما فى مشكلة، بس إذا ما لاقونى فى مشكلتين!! ممكن ما أنجن زيادة، وممكن أنجن زيادة، إذا ما انجنيت زيادة ما فى مشكلة، بس إذا انجنيت زيادة فى مشكلتين!! ممكن ما يعتبرونى خطير وممكن يعتبرونى خطير، إذا ما اعتبرونى خطير ما فى مشكلة، بس إذا اعتبرونى خطير فى مشكلتين!! إمّا يلاحقونى لوحدهم أو ما يلاحقونى لوحدهم ، إذا لاحقونى لوحدهم ما فى مشكلة وإذا ما لاحقونى لوحدهم فى مشكلتين!! ممكن يستعينوا بأمريكا

ويمكن ما يستعينوا بأمريكا، إذا ما استعانوا بأمريكا ما في مشكلة، بس إذا استعانوا بأمريكا في مشكلتين !! يمكن أكره أمريكا أو ما أكره أمريكا، إذا ما كرِهت أمريكا ما في مشكلة ، بس إذا كرهت أمريكا في مشكلتين !! ممكن أسِب على أميركا، وممكن ما أسب على أميركا، إذا ما سبّيت على أميركا ما في مشكلة ، بس إذا سبيت على أميركا في مشكلتين!! ممكن تسمعني أمريكا وممكن ما تسمعني أمريكا، إذا ما سمعتني أمريكا ما في مشكلة ، بس إذا سمعتني في مشكلتين!! ممكن تزعل أميركا وممكن ما تزعل أميركا، إذا ما زعلت أميركا ما في مشكلة، بس إذا زعلت في مشكلتين!! ممكن ما يعرفوا مين أنا وممكن يعرفوا مين أنا، إذا ما عرفوا مين أنا ما في مشكلة، بس إذا عرفوا مين أنا في مشكلتين!! ممكن ينسوا الزّعل بسرعة وممكن ما ينسوا الزعل، إذا نسيوا الزعل بسرعة ما في مشكلة ، بس إذا ما نسيوا الزعل في مشكلتين!! ممكن نقدر نصالحهم وممكن ما نقدر نصالحهم، إذا قدرنا نصالحهم ما في مشكلة ، بس إذا ما قدرنا نصالحهم في مشكلتين!! ممكن يهاجموا البلد وممكن ما يهاجموا البلد، إذا ما هاجموا البلد ما في مشكلة، بس إذا هاجموا البلد في مشكلتين!! ممكن ما يهاجمونا بقوة وممكن يهاجمونا بقوة ، إذا ما هاجمونا بقوة ما في مشكلة ، بس إذا هاجمونا بقوة في مشكلتين !! ممكن يحتلّونا وممكن ما يحتلونا، إذا ما احتلّونا ما في مشكلة بس إذا احتلونا في مشكلتين!! ممكن يمسكوني وممكن ما يمسكوني، إذا مسكوني ما في مشكلة، أما إذا ما مسكوني ففي مشكلتين!! ينسوا الموضوع أو ما ينسوا الموضوع، إذا

نسيوا الموضوع ما فى مشكلة ، بس إذا ما نسيوا الموضوع فى مشكلتين!! ممكن ينتقموا منكم أو ما ينتقموا منكم، إذا ما انتقموا منكم ما فى مشكلة ، بس إذا انتقموا منكم فى مشكلتين !! إنهم يقتلوكم أو ما يقتلوكم..

وصمت الصغير أخيراً محاولاً التقاط أنفاسه ثم قال :

وليش تحطنا فى هيك موقف؟! اشترى لنا كلب وريِّحنا!!!!

عصفور فى الشرفة

كانت الشرفة أوسَع مما هى الآن.

هكذا خُيِّل إليه.

كانت تُطلُّ على مساحة أرحبَ وشرفات أقلّ.

هكذا خُيِّل إليه.

كانت بشمس أكبر وقمر أقلّ شحوباً

هكذا خيِّل إليه.

لكن امرأته قالت له: الشرفة غير مسؤولة عن هذا، بل المسؤول نظرتكَ إلى. وحين التفتَ إلى امرأته تأكّد له ذلك.

– ألم أكن عصفورتكَ الجميلة ذات يوم؟ ألم تفعل المستحيلَ كى تُدخلِنى القفص؟

– بما أننا قد مُتْنا، فباستطاعتى أن أعترف بأنك لم تكونى.

– ولكننا لم نمت بعد.

– وما الفرق ما دمنا سنموت ذات يوم ثم نعترف لأنفسنا بهذا؟

– الفرق.. أننا لم نمت.

***

كانت الأسرة عائدة من رحلتها الأسبوعية إلى نهاية الشارع.. شارعهم ذى النهاية الـ : Dead End، ولم تكن الأُسْرَة قد بدأتْ تُفكر بزيارة المقبرة، حيث ستنتقل إليها ذات يوم..

(زوجته مطمئنة لذلك)

قالت له: قريباً سننتقل إلى هناك. لماذا تصرُّ على التفكير بنفسكَ باعتباركَ مُخَلّداً.

– أنا؟

– نعم . أنت.

– أنا؟

– نعم.. وكأننا سنفنى قبل أن تفنى بقرون.

– أنا؟

– نعم أنت.

– ولكننى متُّ قبلكم.

– هذا الكلام يمكن أن تقوله لنفسكَ، وليس لنا. نحن نعرفكَ. وستثبتُ الأيامُ أنك كنتَ تخطط منذ البداية لما نحن عليه الآن: موتنا.

حين وصل الأمر إلى هذا الحد، ابتسم فجأة.

– لماذا تبتسم؟

– لم أكن أعتقد أننى على هذه الدّرجة من العبقرية.

– اعترفتَ إذن.

– بأننى عبقرى؟!

... ...

كانت الأُسْرة عائدة من رحلتها الأسبوعية إلى نهاية الشارع، وحينما أصبحتْ تحت الشرفة، صاحت امرأتُه وهى تنظر للأعلى: حمامة.. حمامة!!! ولم يكن بحاجة لخبرة متسلِّق جبال أو عالم طيور ليقولها من بين أسنانه مُغتاظا: إنه صقر.

صعدوا الدرجات راكضين، أشرعوا باب الشُّقة، باب الشرفة. ولم يكن الصقر هناك، كان العصفور وحيداً مُلقىً وقد ازداد لون ريشه اصفرارا.

- لو أحضرتَ لهم كلباً، لما أكلته الحمامة. قالت له.

أما الأولاد فقد صمتوا جميعاً، وبخاصة الصغير.

في الليل سأل أباه، وكان يبدو مهموماً: هل يستحقُّ العصفورُ بكاءنا؟

فقال له أبوه: أظن ذلك.

- ولكنني لا أظن.

ونام كالملائكة.

... ...

كان يعتقد أن الصغير لن ينسى أبداً مأساة كهذه.. مأساة عصفور يُقاوم الموتَ برجْلٍ واحدة بعد التهام الصقر لرِجْله الثانية.

أما امرأته فقالت له بمجرد أن ألقي برأسه إلى جانب رأسها: لم أكن أعرف أن الحمام يأكل العصافير من قبل!!

- ها قد عرفتِ.

حين عاد الأولاد من مدارسهم راجِلين كانوا مبهورين بمشهد تلك الحافلات المدرسيّة التي، كم أصبحتْ تشبه في الفترة الأخيرة حافلات السجون، بعد أن اجتاحت الإعلانات الكبيرة صفيحها وزجاج نوافذها أيضا، الحافلات المتدافعة، بعمائها هذا، في ساعات الظهيرة رافعةً اختناقات الازدحام إلى ذروتها. نظر إلى ابنته وجدها تسير خلفهم بتثاقل لم يره فيها من قبل.

كان يعرف أنه سيقف أمامها أعزلَ بعد لحظات، وهي تحدّق في عينيه مباشرة، عاقدة يديها، وزامّة شفتيها، بما يُذَكِّر بلوحة موديلياني (الصغيرة بالثوب الأزرق).



قبل أيام أخذها للطبيب، ولم يكن يريد سوى شيء واحد: أن يثبتَ لهم أنها ترى أكثر من الجميع تلك التي يقولون عنها بأنها غير قادرة على رؤية شيء أبعدَ من أرنبة أنفها.

سألها الطبيب: لماذا أنتِ هنا؟

ردَّتْ: لا أعرف!!

وكان رشيد النمر يعرف أنها تعرف.

وحين فحصها قال له:

نظرها ستة على ستة في العين اليمنى وثمانية على ستة في عينها اليسرى!

– وما الذي يعنيه هذا؟

– يعني أنها ترى أكثر مني ومنك.

حين عاد للبيت كان رشيد النمر يسير إلى جانبها رافع الرأس كما لو أنه يملك طائرة (أواكس) خاصة.

... ...

قلنا!!

حين سمع الأولاد الغناء من تحت الشرفة، ارتفعوا في الهواء، كما لو

أنهم يريدون الطيران نحو الشّرفة، فى حين تسمّرت الصغيرةُ فى مكانها للحظات، قبل أن تعود لمواصلة مسيرها.

اندفع الأولاد يتقافزون فوق الدَّرجات فرحين . أشرعوا البابَ بسرعة، كانوا يلهثون، اندفعوا نحو أبيهم يُقَبِّلونه، أمام صمت أمهم. وبلهفة ضاعفَها عدمُ قدرتهم على التقاط أنفاسهم سألوه معاً: متى سيأكله الصقر؟

– لم أشتره ليأكله الصقر. بل ليغنى.

– على مين بتضحك؟ قال الصغير.

– ليس عليكم بالتأكيد.

– إذن على نفسك.

– نعم!!

***

ونام الصغار كالملائكة.

***

فى آخر الليل مضى لسرير ابنته، اقترب بهدوء، وهاله أن عينيها كانتا مشرعتين على اتساعهما. تراجع فزِعاً.

***

كان وحيداً فى البيت،

مع امرأته،

رغم أن ابنه الكبير لم يعُدْ يغادر غرفته منذ سقوطه المدوّى للمرة الثانية فى امتحانات الثانوية العامة؛ ولذا، كان لا بدَّ، وقد باتوا يخشون عليه كثيراً، من أن يشتروا له جهاز رسيفر خاص يتيحُ له التجوّل فى الفضاء بعد أن ضاقتْ عليه الأرض.

امرأته بجانبه، ولم تكن تُضيِّع أيَّ فرصة تُتيح لها الاحتكاك به..

(لعلّ وعسى)!!

– العصفور فى الشّرفة يُغنى. قالت تشجِّعه على الاقتراب منها أكثر.

– والولد فى غرفته. ردَّ عليها بغضب.

– وما الذى يُغضبكَ، ما دام الولد هناك مبسوطاً فى غرفته، والعصفور يُغنى فى قفصه؟!

نظر إليها بغضب أكبر،

وبحجّة الاطمئنان على عصفورهم الذى يُغنى،

راح يفتح باب الشرفة وينظر إليه بين فترة وأخرى.

عند الظهيرة،

صمتَ العصفورُ فجأة.

أشرعَ بابَ الشرفة بسرعة..

وهناك فاجأ الصقرَ مُتَلبِّساً، ممسكاً برأس العصفور وهو يقف على سطح القفص ويلتهم دماغه بتلذذ بارد مجنون.



نظر إليه الصقرُ ، دون اكتراث.

– سألت امرأته. ما الذى يحدثُ، هناك، فى الخارج؟

وظلّ صامتاً.

وعندما أحسَّ الصقرُ بأن ذلك الرجل سيظلُّ واقفاً بالباب، استدار إليه بكامل جسمه فى حركة تهديد لا تخفى.

بهدوء أغلقَ رشيد النّمر الباب، كى لا يُزعجَ الصقرَ أكثر.. وجلس إلى جانب امرأته المُنكَبَّةَّ على إيجاد الكلمة اللغز فى لعبة الكلمات المتقاطعة التى لم تُنهها فى أىّ يوم.

– أظننا نستحقُّ فسحة نستريح فيها الآن. قالت له.

– ولماذا الآن بالذات؟

– لأن كل شىء قد هدأ. أليس هذا ما تنتظره؟

هزَّ رأسه، ولكنّه لم يتحرك من مكانه.

... ...

حينما عاد الأولاد من مدرستهم، كان أول ما فعلوه، مثل كل يوم، أن حدقوا فى الشرفة باحثين عن العصفور.

وحينما لم يسمعوا صوته صعدوا الدرجات بسرعة أكبر.

– هل أكله الصقر؟ سألوا أباهم.

– أكله.

– احكِ لنا كيف أكله الصقر. إن كنتَ تُحبنا فعلا، احكِ لنا كيف أكله!

– وهل أكله الصقر فعلا هذه المرّة أم الحمامة؟ سألت أمرأته.

هزَّ رأسه، ولم يقل شيئاً.

– تأكلون أولاً، ثم أحكى لكم كيف أكله الصقر.

– لن نأكل إن لم تقل لنا كيف أكله الصقر!!

ورأى ابنته تنسلُّ بعيداً بخطى ميتة..

– كنتَ سترتاح، لو اشتريتَ لنا كلباً، كنت سترتاح من أن تخبرنا حكاية العصفور الذى أكله الصقر.

بهدوء راح يحكى لهم عن العصفور المعلَّق فى القفص مثل رجُل مشنوق، وعن الصّقر الذى كان يلتهمه بتلذذ غير عادى وعن النظرة التى ألقاها الصقر عليه، فأحسَّ بأن دوْرَه قد اقترب، مما جعله يُقفل الباب بهدوء. وعندما انتهى، وقد كان سعيدا طوال الوقت، وهذا ما حيَّره، قالوا له: لقد ورّطّنا مع الصّقر.. نعنى ورطتَ نفسك. أرنا كيف ستخرج من مشكلة كبيرة كهذه.

ونهضوا للطعام شامتين.

... ...

لم ينم تلك الليلة، ولم تنم امرأته.

– إذا أكلكَ الصقر، لن أجد من يتزوجنى. قالت له. وأدارتْ وجهها. ثم كيف يمكن للأولاد أن يكونوا فرحين إن لم تكن هناك حكاية عن صقر أكلَ عصفوراً.

نظر إليها فتأكّد له أنه لم يعد فيها ما يُذَكّره بفتاة عرفها ذات يوم.

قال لها: سأجد حلاً.

فردَّتْ: بل أريد حلاً.

.. ..

ولم يكن الأمر صعباً.

فـي صبـاح اليـوم التـالى ذهـب واشـتـرى قـفـصـاً كـبـيـراً مليـئـاً بالعصافير..

لم يدفـع كثيـراً، فـقـد كان يعـرف، أن حمـلةَ مطـاردة العـصـافـيـر قـد مـلأت جيـوب الأولاد بكثيـر من النقـود ، بـعدمـا أعلنت الحكومـةُ أنهـا ستـدفع عـشـرين قـرشـاً مـقـابل كل عـصـفـور حـيّ أو مـيـت يحـضـره أى شـخـص لأي مـركـز أمـن فـى حـارته أو مـدينتـه أو قـريتـه، وقـد امـتـلأت الجـدران وأعمـدة الهـاتف والكهرباء بالملصـقات التى تشـجـعـهـم على ذلك.. ولم يـقـف الأمـر عند ذلك، إذ انتـشـرتْ دوريـاتُ شـرطة، مـحـمـولة وراجلة، مـزوّدة بأقفـاص كبيـرة لتسـهيل استلام العصـافير من صـائديها، ولم يكن ثمة إجراءات رسمية أبداً. فقط تسليم واستلام!

لكن بائعى العـصـافـيـر ، دخلـوا، سـرّاً ، فـى منافـسـة مـع الحكـومـة ، فدفـعـوا قـرشـيـن أكثـر . ولم تُعرِ الحكومـةُ الأمـر اهتـمـامـا يُذكَـر ، فلم يكن ثمـة بائعو عصـافـيـر فـى كل مكان ، واعتبَـرتْ دخـول هـؤلاء علـى خط البيـع نوعاً مـن أنـواع الديـمـقراطية. واقتصـادياً، نوعاً من أنواع الخصـخـصـة، أو التدّرب عليـهـا . لكنـهـا وضـعتْ قانونا صـغيـرا : (لـسـلامة الزبائن ، على كل صـاحـب مطعـم أن يلتـزم بشـراء العـصـافـيـر من مـذبح الحكومـة مباشرة).

وهكذا، بدت القسمـةُ عـادلةً تماماً. إذ لم يغضب كبارُ تُجّار العصافير، ولم تغـضـب الحكومـة، ولم يـغـضـب الشـّعب الذى كـانت تُصـيبـه، بين حـين وآخـر، شـهـوةُ وجـود العـصـافير متـقـافـزة فى أقـفـاص على شـرفـات المنازل وجدرانها مع تدنى أعداد العصافير الطليقة شيئا فشيئاً، أو شهوة تناول

وجبة عصافير شهيّة في البيوت نظراً لارتفاع أسعار مثل هذه الوجبات، كما هو معروف، في المطاعم.

باختصار.. تعاملت الحكومة مع العصافير كالدّجاج. الدجاج الذي يمكن أن يشتريه الناس من السّوق، أو أن يشتروه ناضجاً من مطعم (السّلام) أو من (كانتكي).

لكن الناس كانوا يعرفون، بحكم خبرتهم الطويلة، أن الحكومة لا تسمح باقتناء العصافير عبثاً. وأكّد البعض أن هناك ملفات تُفتح لكل من يشترى عصفوراً وقفصاً في آن.

***

حين رأت امرأته القفص الضّخم ممتلئا بالعصافير، صرختْ: رحنا بداهية. هل جُننتَ لتشترى كل هذه العصافير ومعها القفص؟! كان يمكن أن تصنع القفص على الأقل، كي لا يفتحوا ملفّاً لكَ ولأولادك ولأولاد أولادك وربما يضعون اسمى فيه!!

– اطمئنى. قال لها. لقد اتخذتُ جميع الاحتياطات.

– وما الذى قلته لهم؟

– لدينا وليمة كبرى، دعوة مهمة بمناسبة عيد زواجنا العشرين.

– ولكننا متزوجان منذ واحد وعشرين عاماً!

– لا عليكِ لن يطلبوا منّا عقد واجنا ليتأكدوا من أمر كهذا! ولكى يطمئنوا قلتُ لهم: سأعيد القفص صباح غد.

– وهل ستعيده فعلا؟

– بالطبع.

– الحمد لله. ولكن هل أحضرتها فعلا لكى نحتفل بعيد زواجنا؟

– بالطبع. ولكننى قررتُ أن أدعو واحداً فقط.

– تدعو واحدا فقط، بمناسبة العيد العشرين لزواجنا!!

– نعم.

– كان عليك أن تدعو عشرين شخصاً على الأقل كى أحسّ بأنك لم تزل تُحبنى. ثم من هو هذا الواحد؟

– ألم تفهمى بعد؟ الصّقر!!

– تهدر هذه الأموال كلها من أجل صقر. دعنا نأكل شيئاً منها على الأقل، دعنا نفاجئ الأولاد بعشاء مُعتَبر يفتح شهية أدمغتهم كى تصبح أكبر، فلعل الأجنحة تساعد فى ذلك.

– لا.. هذه للصقر.

– أنتَ لم تعد تحبنى.

– وكيف عرفتِ؟

– عرفتُ. وهل تحتاج مسألة كهذه للتفكير؟

– إذن، أنتِ لستِ بحاجة لأكل عصافير أبداً.

– ولماذا؟

– لأن عقلكِ كبير أصلاً.

– أفحمتنى.

– وهكذا سأفحم الأولاد إن طلبوا وجبة كتلك.

– ولكنهم لن يطلبوا. لأنهم يريدون حكاية جديدة كلّ يوم. حكاية يمكن أن نسميها (ألف عصفور وعصفور).

– كيف لم أفكر بهذا؟! (ألف عصفور وعصفور)!

– وتقول إننى لا أساعدكَ بشىء، ها قد ألهمتكَ فكرةً عظيمة.

– ستكونين عظيمة، إن قلتِ لى ما الذى أفعله بفكرة عظيمة كهذه.

– الصحيح، لا أعرف.

– ولذلك، أنا موجود، لأقول لكِ.

– ما الذى ستفعله بفكرتى؟

– سأصبحُ كاتباً.

– بعد ما شابْ ودّوه للكتّاب!! وما الذى سنجنيه من ذلك؟

– سنجنى عصفورين.

– ومن أجل عصفورين نُضحّى بكل هذه العصافير؟! هل جُننتَ؟

– لا، بالتأكيد.

– فسِّرْ لى الأمر إذن.

– العصفور الأول لكونى سأصبح كاتباً.

– والعصفور الثانى؟ سألته شامتة.

– العصفور الثانى لأُقنعَ الحكومةَ إذا ما داهمتنا ذات يوم بأننى لم أكن أحتفظ بالعصافير لنفسى، بل لأُعدَّ لها ميتات أكثر قسوة من ميتاتها فى المسالخ العامة.

– أتعنى لأنكَ تطعمها للصقر؟

– أجل.

– ومن قال لك ان الحكومة ستقبل بهذا؟

– سأقول لها إذن (لأُسلّى الأولاد قليلا) إنهم أولادٌ آخر الأمر.. أليس كذلك؟

– أنتَ حُرّ. ولكن لا تذكُر اسمي على لسانكَ أو في الحكايات التي ستكتبها.

***

حين ذهب للنوم سعيداً، بعد أن أخبر أولاده بالطريقة التي أكلَ فيها الصقر عصفوراً من جديد، انتفض في العتمة.

– ما لكَ؟ سألته زوجته ووجهها للحائط.

– هل تعتبر الحكومة الصقر من فئة العصافير أم لا؟

وعندها صرخت: رحنا بداهية.

أضاء النُّور، مضى نحو الصحيفة التي نشرتْ قرارَ الحكومة المتعلِّق باصطياد الطيور. لم يجد أى ذِكْر للصقور. كان القرار غائماً ، عاماً ، ودقيقاً في آن. فالطيور تعني كل ما له جناح. أليس كذلك؟ ووجدَ نفسه يجيب: نعم.

وفي دوّامة الأفكار التي راحتْ تعصفُ به ، وجد نفسه يدور ويدور ، إلى أن خطرت له تلك الفكرة المجنونة ، سأذبح ما تبقَّى منها الآن. وفعلَها . انتظر الصباح ، خرج للشرفة كما لو أنه يريد أن يُعْلِنَ للبشرية حُكْمَاً صدرَ ببراءته. لكنه ما ان أشرع بابها حتى وجد نفسه وجهاً لوجه مع الصقر. ألقى له العصافير الذبيحة. فلم يلتفتْ إليها. تذكّر أن الصقور لا تأكل إلاّ ما تقتله بنفسها. هكذا قرأ ذات يوم.

وقبل أن يتراجع، كان الصقر قد حَطَّ على كتفه.

بصعوبة أدارَ وجهه نحوه ، وهو على يقين أن أولَ ما سيفعله هو أن يلتهم عينيه. لكن الصقر لم يفعل ذلك. ظلَّ في مكانه، إلى أن استيقظتْ زوجته وأتى أولاده، بمن فيهم ابنه الكبير.

حين أبصروا الصّقر على كتف ربِّ البيت تجمّدوا في أماكنهم، وكأن على أكتافهم الطير أيضاً! وكان ردّ الفعل الوحيد تلك الدمعة الصامتة التى انحدرت على خدّ ابنته.

بدأ بالتهامه، وما إن رأوا ذلك حتى لانت قاماتهم وراحوا يتقافزون فرحين، فى الوقت الذى راحت فيه زوجته تُطْلقُ سيلاً من التعليقات الشامتة.

لم يكن قد تبقّى ما يُذَكِّرُهُم به سوى هيكله العظمى.

وبسرعة غير عادية التهم أولاده. وعندها أدركت زوجته أنها ستتعذَّب كثيرا، إذ من أين لها أعضاء طريّة كأعضائهم.

التهمها وهى تنظر إليه دَهِشَةً، إذ لم يسبق أن أكلها صقرٌ من قبل.

طار.

وهكذا بدأت حياتهم الجديدة.

– أوَلَم تقل إنك أنتَ الذى قتلتَهم؟ سأله صاحبه الأخير.

– نعم. لقد قلتُ ذلك.

– ولكننى أفهم من كلامكَ أن الصقر هو الذى التهمَهم.

– هَا، وأين ذكاؤك؟ مَن الذى أتى بالصقر؟

– أنتَ بالطبع؛ ولكن لماذا تركته يأكلك؟

– وكيف كان يمكن أن يُصدِّق أحد أننى لم أقتلْهم إن لم أسمح له بأن يأكلنى؟!

– أتعرف، أنت تفاجئنى على الدوام.. ولكنك هذه المرة تفاجئنى بشىء جديد.. جديد تماماً.

– وما هو؟

– إنك مقنع . ولكن هل هناك خطط معينة بعد الموت؟ أعنى ما الذى تفكّر فيه الآن؟

– لا شىء، كل شىء سيسير كما كان دائماً، بل ربما بطريقة أسهل. أتوافقنى؟

– لا أستطيع أن أجزم فى أمر كهذا؟

– ولماذا؟ أنت صاحبى ومن المفترض أن تعرف.

– ولكننى لم أمُتْ بعد؟

– رغم أننى لا أصدقكَ فى هذه، لأننى لا أملكُ الدليل القاطع، إلا أننى كنتُ دائماً معجباً بك؟

– أفهم ذلك، ولكننى لم أسألكَ.. لماذا؟

– لقد نجحتَ فى أن تظلّ خارج القفص، وها أنت تنجح للمرّة الثانية وتظل على قيد الحياة. ولكن، هل يمكن أن تقول لى ما السرُّ فى هذه النجاحات المتواصلة؟

– أبداً. أنت تعرف، لم أجد المرأة التى تقبل بى ولا طريقة الموت المناسبة بعد.

– لكنّك لم تستسلم! لا تقل لى بأنكَ استسلمت!

– بالتأكيد لا.

– وما الذى تفعله لكى تظل هكذا على قيد الأمل؟

– أنتظر. أنت تعرف فى حالات معقدة كهذه، ما عليك إلا أن تنتظر.

– هل تعنى أننى خسرتُ ذلك الشيء الرائع الذى يُسمى الانتظار حين تزوجتُ، وحين متُّ؟

– ربما . ولكنكَ رغم ذلك ما زلت تنتظر شيئاً ما ، لا تقل لى إننى على خطأ.

– وما هو؟

– إن قلتُ لكَ ما الذى تنتظره، فإننى سأعترف لك بالسرِّ الذى لا أحبُّ البوحَ به.

– وهل هنالك أسرار بيننا، بعد هذا العمر.. أعنى بعد هذا الموت؟

– انتبه ، يمكنك أن تتحدّث الآن عن نفسكَ باعتبارك ميتاً، أما أنا فالأمر مختلف؟

– هل تعنى أن صداقتنا ستنتهى لمجرد أننى مُتُّ؟

– لا ، لا أقول ذلك . فمن تجمعهم الحياة لا يُفرقهم الموت. ألا يقول الناس ذلك؟

– لا أعرف إن كان الناس هم من يقولون ذلك أم أحد آخر! ولكننى أفهم من كلامكَ هذا أننا سنلتقى مرة أخرى؟

– ما الذى تقوله يا رجل، نحن سنلتقى دائماً.

– أرجو ألاّ يكون كلامكَ هذا مجرد كلام.

– تأكّد أننى أعنى كلَّ حرف فيه.

– وكيف سأتأكّدُ من ذلك؟

– عليكَ أن تنتظر ، ها قد أُتيحَتْ لكَ فرصة أن تنتظر ، أنت الذى كدتَ أن تزرع اليأس فى قلبى وأنت تقول إنك ضيَّعتَ الانتظار ، ولذلك أؤكد لك، إذا أحسستَ بأننى قد تغيرتُ، فإن عليكَ أن تطلب منى دون أى إحراج أن أموت.

– أهذا وعد؟

– بالطبع، بل أكبر، إنه عهد.

ما بعــد البــداية

حاولَ أن يستعيدَ الاتجاهات التى أشار إليها الرجل العجوز.

لم يتذكَّر شيئاً. اختلط الشمال مع الجنوب مع الشرق.

الجهة الواضحة الوحيدة التى لا خلافَ عليها كانت حركة يده باتجاه السماء. وقد بات حذِرا من أن يُردد كلمة (الغرب) لأنها الاتجاه الممنوع.

خُلوُّ المركز من الزائرين وأعين كاميرات المصورين الصحفيين المتطفلة لأكثر من أسبوع ساعده على أن يُفكِّر بهدوء؛ وأول الأشياء التى اكتشفَ أنه بحاجة ماسّة إليها كانت البوصلَة.

اشترى بوصلة.

(ليس ثمة مبرر للقول بأنه تعذَّب حتى استطاع الحصول على واحدة محترمة غير قابلة لأن تُضَلَّلَ بسهولة، أو تُضلله)

فى صبيحة اليوم التالى كان أول شىء يفعله هو أن يأتى بالطاولة ويضعها فى وسط الساحة، يضع البوصلة عليها مستوية تماماً، ويحدد الاتجاهات بدقة رحّالة.

بعد أن اطمأن تماماً.. جلس ينتظر.

زووم إن ... آوت

زحامُ الظلالِ
يرجُّ البيت
كانت خائفةً
فالأحلام التى حُشِرَتْ معها فى المكان الضيّق
كانت عمياء بأنامل محترقة

ليس فى الأمر ما يشبه الكابوس
أو وصول موكب مزركش بالأعلام بين صفَّين من قتلى يبتسمون
أو رؤيا مرعبة لا يجرؤ على إعادتها
رؤيا مرّت، ليلة أمس، وعكَّرتْ شهوةَ أطرافه للقيد
وعنقه للمشنقة.
ثمة أشياء لا يستطيع قولها،
لا بدّ من أن يقولها أحد الآن
ولكن لا بأس بمقدمة سريعة لا غير:
منذ زمن باتت الأفلامُ، كالأغانى، تطير فى الفضاء
وتُطلُّ من شاشات التلفاز طوال الوقت

لكنه لم يكتشف أن قفاه قد تقرَّح لفَرْط ارتمائه أمام (أشلى جوود) أجمل حسناوات هوليوود منذ عشرين عاماً..



إلا حين قرأ فى الجريدة حفلةَ الجَلْد التى أُعدَّتْ لذاك الأستاذ الجامعى فى بلد مجاور..

وقد استاء: فأىّ مؤخِّرة هذه التى سيفاجئهم بها لو أنههم قرروا ذات يوم أن دوْرَه قد جاء ، هنا.

هكذا نهض وحاول ترميم ما يمكن ترميمه

وزيّن المساحات الصغيرة السّليمة (من قفاه) بما يليق بسوط

تلك الليلة التفَّ بجناحى نَسْر هرم

وجبين رجُل تشريفات تعوَّد الانحناء لأى سبب.

وبلا أىّ خوف

قرر أن يحلم بشىء يؤكد أنه أفضل من ظنِّهم به.

لكن الأحلام تخذل دائماً كالأصدقاء الذين يموتون أولاً أو يموتون فيما بعد ويتركوننا ننتظرهم فى تلك الأماكن الغامضة.

وهذا ما حدث!!

على شكل سيناريو عجيب لفيلم قصير كان الحلم الذى عَبَر مخيلته:
فى الخلف دخانُ معركة
فى المقدمة عربات عسكرية تتقدّم ملتفَّة بالغبار
فى الأفق صيحات نصر
لكن المشهد برمّته لا تميزه العين
(ذكَّره ذلك بمشهد من (لورنس العرب)
حين يعود لورنس من أقصى الصحراء، بعد أن أنقذ الرجل الذى تاه..
الرجل الذى سيوجِّه إليه لورنس، نفسه، فوهةَ مسدسه ويقتله أمام الجميع، فيما بعد، كى يلْجِمَ الفتنة)
العربات تتقدّم بالوتيرة نفسها
ولكن الشىء الذى يُحيِّره
أن الجهات اختفتْ جميعها ولم تكن ثمة جهة هناك غير الغرب
أما الذى حيّره أكثر فهو
أنه لم يكن يرى فى تلك العربات سوى رجل وحيد يرفع يده بعلامة النصر.
تنحرف العربات وتتوقّف
وبصعوبة، يمكن أن يرى المرءُ أرجُلَ جنود تطلُّ من الصناديق
ولن يمضى وقت طويل قبل أن يرى ثقوباً واسعة فى أكثر من جبين
تتلاشى الضجّة قليلا قليلا
وتصمت محركاتُ السيارات التى ظلّتْ تدور وتدور حتى نفاد الوقود
(كان الحلم بالنسبة إليه لا يقلُّ طولا عن أسبوع)

وحيَّرَهُ أن فيلما طويلا كهذا الحد، يمكن أن يشاهده الناسُ دون أن تهترئ أقفيتهم

وحينها، خطر له أن (أشلى جوود) ليست السبب فيما يتعلّق بقفاه..

كان الأمر بالنسبة إليه أكثر جلالا من أن تطرف عينه

فيخسر شيئاً من المشهد

أو ينتبهوا لذلك، فيُقتاد إلى حيث اقتادوا الأستاذ الجامعى نحو الساحة العامة

هكذا واصلت العربةُ تقدُّمها

وهكذا كانت تزداد قامة الرّجل الملوّح بعلامة النّصر ارتفاعاً

والكاميرا تتقدّم نحوه فى لقطة مقرّبة، أو بتلك الحركة التى يطيب للعاملين فى مجال السينما أن يدعوها (زووم إن)

وعلى مهل تروح ملامحه تملأ الشاشة بهدوء

(عند ذلك أوشك رشيد النمر أن يصحو فَزِعاً

هو الذى لم يكن يتوقّع أن يجد نفسه، فجأة، وجهاً لوجه مع قائد كهذا..

لكنّه تذكر أنه لم يكن ذاهباً للنوم كى يصحو فى النهاية)

وسوءاً فعل!!

تراجعتْ الكاميرا للوراء

أو بتلك الحركة التى يطيبُ للعاملين فى مجال السينما أن يدعوها (زووم آوت)

راحتْ ملامحُ القائد العسكرى تبتعد قليلا قليلا

وفى الوقت نفسه، بدت المساحةُ الممتدة خلْفه مكتظة بحدائق لم ير أحد مثلها من قبل

كان الطريق أمامه أبيض كالثلج وناصعاً

وفى المساحة الضيقة على جانبى الشارع، كان يمكن للمرء أن يرى بعينيه كيف تكبر الأزهار خلال ثوان معدودات

دون أن تتجرأ، بالطبع، على رفع أعناقها كى تنظر إليه مباشرة.

تراجعت الكاميرا أكثر، فبدا المشهد لائقاً بحلم يدَّخره المرء لاستقبال قائد عائد من الحرب

وعلى جانبيه أكثر من شمس.

فجأة، ينكشف المشهد عن منصَّة وأوسمة تتلألأ

وشرائط بألوان زاهية تليق بالبزّة البيضاء التى لم تَعْلَقْ بها ذرةُ غبار

(قِصَرُ النَّظر وحده، ربما جعل رشيد النمر يخلط بين اللون الأخضر المُغْبَر لبزّات المعارك ونصاعة الحليب فى بزّة الاحتفال)

تتوقّف العربة

وما يمكن أن يقال عن البزّة البيضاء يمكن أن يقال هنا، أعنى يُشاهَد، فى الحذاء الأبيض الذى كان فى البعيد الأعمى ليس أكثر من بسطار.

بحركة سريعة أشار القائد إلى صدره

(أن انهوا الأمر بسرعة)
ولم يكن هناك أحد
لكن النياشين
ومن تلقاء نفسها
راحتْ تتسلَّقُ قامته واكتفى بعضها، وسط ذلك الزّحام، بركبتيه.
ألقى نظرة بعيدة إلى حيث كانت العرباتُ والغبار والدخان ولم يُبصر غير الحدائق
ابتسم
ألقى نظرةً حيث كانت الثّقوب العميقة تتّسع كنوافذ فى جباه الجنود.
يهبط من على المنصَّة

هل هنالك بقعة دم على طرف رباط فرْدة حذائه اليمنى
أم أنها غير ذلك؟
لا أحد يستطيع أن يؤكد الأمر حتى الكاميرا التى راحت تقترب فى حركة يطيب للعاملين فى السينما أن يدعوها (زووم إن)

يصعدُ للعربة

وللمرة الأولى يُدرك رشيد النّمر أنها كانت تسير وحدها
أو أنه كان يقودها واقفاً بمعجزة لم يسمع بها أحدٌ من قبل.
تتراجع الكاميرا قليلا قليلا
فيتّسع المشهد خلْفه مُسْفراً عن

عربات ودخان وثقوب غامضة فى الجباه
وغباااااار
وتظل تتراجع وقد دخلتْ العربةُ فى شارع ضيّق طويل، كلما توغّلت فيه تلاشت الساحة خلفها وظلّت المنصّة وحدها مشعّة ببياض غريب.

مشهد كهذا لم يكن ينقصه إلا غيمة متواضعة بمطرها الخفيف
ودون أن تفارق الكاميرا جسده تَتَنزَّل القطراتُ بالتّصوير البطيء وتنحدر برقّة وتتقافز من حافة طاقيته العسكرية ذات البروز المجدول بالحريرين الأحمر والأخضر،
كشرفة
وتتقافز كالكرات فوق النجوم التى تتزاحم فوق كتفيه
تنحدر نحو أوسمته
وتنحدر
حتى تلامسَ الأرضَ فتقفزُ من جديد لتغدو أعلى من قامته مكررةً المشهد.
وللحقيقة، لم يكن غاضباً من المطر كما يحدث عادة
حين تعبر غيمةٌ تافهةٌ وتعكّر صفو احتفال فى ساحة مليئة بالعشب
لكن التقْطيبة الوحيدة التى سكنتْ جبهتَه خطفاً
كانت الرائحة الغريبة سببها الوحيد
إلى ذلك الحدّ الذى أوشك فيه أن يتذكّر شيئاً ما، أليفاً،
شيئاً يعرفه تماماً
تبتعد الكاميرا قليلا قليلا وهى ترتفع

وفى لقطة طويلة متّصلة تتوارى عينها خلف نهاية الشارع الضيّق وتدور فى حركة نصف دائرية حتى تعود لأوله، خلف العربة التى نراها مُدْبِرَةً والساحة أمامها فى البعيد ممتلئة بالسيارات العسكرية

والثقوب التى فى جباه الجنود والغبار،

(كل ما كان خلْفه قفز إلى الأمام، هناك، ينتظره)

لكن المنصّة اختفتْ

وهذا هو المهم

تصعد الكاميرا قليلا قليلا لتغدو فى مستوى السطوح

وهنا، سيفاجئنا ما نراه:

آلاف الأطفال الصغار الذين تتراوح أعمارهم بين عامين وثلاثة عشر عاما فى صفّين متقابلين على طرفى البنايات المحيطة بالشارع

فجأة يستديرون وأيديهم تمتدّ إلى أزرار وسَحَّابات بناطيلهم يغلقونها، مغمورين بذلك الحسِّ الرائع

(لقد تخلصوا أخيرا مما أوشك على تمزيق مثاناتهم الصغيرة)

تتقدّم الكاميرا فى تلك الحركة التى يطيب للعاملين فى السينما أن يدعوها (زووم إن) نحو يدىّ طفل صغير لا يستطيع أن يُغلقَ السَّحْاب)

وفجأة تتقدَّم من خارج الكادر يدان كبيرتان، وتحلاّن المشكلة بخبرتهما الطويلة فى هذا المجال.

وهنا يقفز رشيد النمر من نومه فَزِعاً

وقد أدركَ أن تلك اليدين اللتين ظهرتا فى مشهد الفيلم الأخير

ما كانتا، ويا للهول، سوى يديه.

تجـــوال

نظر رشيد النّمر إلى ابنه الكبير، وقال له: بعض النظافة لن تضرُّك.

- بالتأكيد. إن كان هنالك ماء.

- أنظر إلى جارنا الدكتور. أنظر إلى تلك النظافة التى تضىء ملابسه ووجهه، وتعلّمْ منه شيئاً.

- ما الذى سأتعلمه؟ سرقة الماء؟!

- ما الذى تعنيه بسرقة الماء؟!

كانت المدينة تعيش حالة إرباك لم يسبْق أن مرَّت بها من قَبل، حين اختلطتْ مياه المجارى بمياه الشُّرب ولم يعد أحد قادراً على امتلاك الجرأة لغسل وجهه أو فمه وغدا العثور على قطرة ماء نظيفة أكثر صعوبة من اصطياد عصفور مُحلِّقٍ بيد مجرّدة.

- الدكتور يستيقظ كلّ ليلة، وأراه بعينى من نافذتى المطلّة على ساعات المياه وهو يعمل بسرعة.

- لا يمكنك أن تقول كلاماً كهذا عن أستاذ محترم، ورجل متديّن لا يفوّتُ صلاة الجمعة، ألا تراه من الشرفة وهو ماض يرفُّ بالدشداشة، كحمامة، قاصداً المسجد على قدميه.

- لقد خرجتُ ليلة أمس وتأكّدتُ من الأمر. إنه يقوم بإغلاق الساعات السَّبع ويُبقى ساعة مياهه مفتوحة. وعند الفجر يعود ثانية ويُخفى آثار الجريمة.

– هل جننتَ. هل تعنى أنه لا ينام أيضاً؟

– حين تُلقى علية تحية الصباح، حاول أن تشمَّ رائحته.

– وما بها رائحته؟

– رائحة بول.. خراء!

– وهل شممتها أنت؟

– وهل علىَّ أن أفعل كى أتأكد من أنه يسرق ماء المجارى؟

***

حاول رشيد النمر أن يعمل المستحيل للتأكُّد من ذلك، إذ لا يُعقل أن يتمَّ حرمان الإنسان، بسبب الأنانية المفرطة، من المياه مهما كان طعمها ولونها ورائحتها. ظلَّ واقفاً خلف الباب إلى أن سمع باب شقّة الدكتور يُفتح، أشرع الباب بدوره، وهو قابض على عنق مظلته المورّدة، وتبعه هابطاً الدرجات بسرعة كى يتمكّن من اللحاق به قبل الخروج من بوابة البناية.

(ذلك يُسهِّلُ مهمّةَ أنفه فى هذا الحيز الضيّق)

حين سمع الدكتور الخطوات المهرولة خلفه زاد من سرعته (كعادة سكان البناية وبقية البنايات الذين باتوا يخشون لقاء جيرانهم، هذا اللقاء الذى قد يكلّفهم إلقاءَ تحية الصباح أو المساء) لكنّ رشيد النمر فاجأه قبل أن يمدَّ يده لقفل الباب معترضاً طريقه تماماً.

– صباح الخير دكتور.

– صباح النّور.

– كأنكَ متعب قليلا؟

– لا، أبداً، من قال ذلك؟

واقترب منه أكثر وهو يتشممه.

حبس رشيد النمر نَفَسَهُ بسرعة. تراجع خطوتين، أشرع الباب الخارجى

للبناية، أطْلَق كتلة الزّفير اللزجة التى أغلقتْ مجارى تنفُّسه، وعبَّ كمية هائلة من الهواء.

– هل أصابكَ سوء؟ سأله الدكتور مرتبِكاً.

– لا أبداً، ولكن خيِّل إلي أننى شممتُ رائحة كريهة.

– هذا بسبب البول الذى يسقونه لنا ويجعلوننا نستحمّ به أيضاً؟

– ما الذى تعنيه بـ (نستحمّ) به أيضاً، وهل هناك ما يكفى من المياه للشرب كى نستحمّ هذه الأيام؟

– لا أعرف!! أنتم تغلونها قبل شُرْبها، أليس كذلك؟ عليكم أن تنتبهوا لصحّتكم فى مثل هذه الحالات، أليس كذلك؟ إنه لأمر مقلق فعلا أن تصل الأمور إلى هذا الحد فيما يتعلق بالمياه، ألا يكفينا اكتشاف أطراف القوارض فى الطحين، وحكاية السَّمنة التى شُحِنَتْ بصهاريج النَّضْح؟!

وزير الصحة:
إجراءات لحصر الأماكن التى تسربت إليها السمنة الملوثة

اخذت قضية تهريب السمنة غير المكررة المهربة بصهاريج نضح والتي لا تصلح للاستهلاك البشري تتفاعل في الأوساط المحلية الرسمية منها والشعبية بعد ثبوت وصولها إلى مختلف المناطق منذ أسابيع خلت ودخولها في صناعة العديد من الحلويات والمواد الغذائية.
وفي تصريح خاص [illegible]

– لهذا لا تستطيع النّوم؟

– ما الذى تعنيه بكلامكَ هذا؟ أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه إن كنتَ تعنى شيئاً بكلامك هذا.

– أعنى أن تكون مضطرّا لمغادرة فراشك ليليّاً منذ بداية هذه الأزمة.

– كيف عرفت؟

– ابنى الكبير، تعرف، إنه لا ينام، وقد قال لى إنه يراك ليلياً قلقاً تتجوّل حول البناية.

– هذا صحيح، أنت تعرف حين تُفْتَقَدُ المياه النّظيفة فإن أقلَّ ما يمكن أن يسعى المرء للتمتُّع به هو قليل من الهواء النظيف فى الليل. وإذا ما أردتُ أن أكون أكثر صراحة سأقول لك إنّ جزءا من هذا الخروج سببه أننى لا أستطيع النوم بسبب هذا الانتظار المتواصل للحظة التى يبدأون فيها ضخَّ المياه، ولذلك ترانى بين حوش العمارة وسطْحها بمجرّد أن تناموا.

– ما الذى تعنيه بقولك (بمجرّد أن ننام)؟

– لا شىء، لا شىء بتاتا، ولكنّ ما يؤرقنى أن الناس لم تعد تنتظر شيئا هذه الأيام. أليس كذلك؟

– ولكننا ننتظر فى غرفنا؟ ردَّ رشيد النمر بغضب.

– هذا ليس انتظاراً، إنه أقلُّ من ذلك بكثير؟

– بل إنه أكثر أهمية من المعنى المُضْمر فى انتظاركَ؟

– أرجو أن تُفسِّر لى الأمر لأننى لم أفهم.

– يكون الانتظار انتظاراً أعمق حين تكون أمام التلفزيون أو فى ثياب النوم. أما حين يكون فى الخارج فإنه يَفقد بعض معناه، ألا توافقنى على ذلك؟

– أنت تقول شيئا أسمعه للمرّة الأولى. ردَّ الدكتور.

– أعنى أنكَ حين تنتظر أمام الباب أو على السطح فإنك تفعل شيئا محدداً هو الانتظار، أما حين تنتظر أمام التلفزيون أو فى سريرك فإن الانتظار يكون كاملا لأنك تكون مستسلما تماماً ولا تتوقّع وصول الشىء الذى تنتظره، رغم أنك، فى الحقيقة، لا تفعل شيئا سوى الانتظار!!

– سأفكِّر فى الأمر، سأفكر فيه جيداً، وإذا ثبتَ لى أنكَ على حقّ فأعدُكَ

أن أنتظر وصول المياه في السرير، أو أمام التلفزيون. ربما في السرير أفضل، أليس كذلك؟

– أظن. أشكرك.

– تشكرني على ماذا؟

– على أنك ستنتظر مثلي ويكون انتظارك شبيهاً بانتظاري! هذه مسألة تعني الكثير بالنسبة لنا كجيران. قال رشيد النمر. وأضاف: ولكنني كنتُ أريد أن أسألكَ سؤالاً غريباً وأنت رجُل علْم.

– تفضّل.

– هل يجوز الوضوء بمثل هذه المياه التي تصبُّ في خزانكَ بعد أن ننام؟!!

– ما الذي تعنيه بقولكَ بعد أن تناموا؟

– أنتَ، نفسك، دكتور، قلتَ إنك لا تتوقّف عن الحركة ما بين حوش العمارة وسطْحها حين ننام.

– أنا قلت ذلك؟! أنا؟ ردَّ الدكتور بغضب.

– ما دمنا مجرد ٢ فقط هنا، فلا بدّ أن أحدنا قد قالها.

– ليس أنا. قال الدكتور بحزم.

– وليس أنا. ردّ رشيد النمر بغضب.

صمت

– على أيّ حال، ليس هناك مُبررٌ لأن نتشاجر بسبب كلمات قالها سوانا. ألستَ معي في هذا؟ سأله رشيد النمر.

– في هذه أنا معك.

– ولكن ماذا عن مسألة الوضوء؟

– ها أنتَ تعود لتثير المشكلة من جديد.

– سأكتفى إذن برفْضكَ الإجابة إجابةً، ردَّ رشيد النمر.

– أشكرك على تفهُّمكَ، فبعض الأشياء لا يجوز الحديث فيها، وأنت أكثر عِلْمَاً منى بهذا، أليس كذلك؟

– ما الذى تعنيه دكتور بأننى أكثر عِلْماً بذلك؟

– أنت لديك تلك المسألة التى تعيشها يومياً فى المركز، أعنى تلك الجهة، أبعدنا الله عنها، فلماذا تضيف إليها مسألة لا تقلّ إرباكاً!

– معك حق. تصوّر أننى سألت امرأتى أن تحدّد لى)صمتٌ (أن تحدد لى تلك الجهة، تصوّر ما الذى قالته لى؟

– ماذا قالت؟

– عليكَ أن تتصوّرَ ما قالته لى؟

– ولكننى لا أستطيع أن أتصوّر ما قالته لك.

– حاول، فقط حاول من أجل الجيرة على الأقل وهذه الشّراكة فى المياه.

– لن أحاول.

– حاول ولو لمرّة واحدة.

– صدّقنى.. لا أستطيع أن أتصوّر ما الذى قالته امرأتك لك حول تلك الجهة الغامضة.

– هل تعنى أن حماركَ تَعِبَ.

– ما هذه اللغة يا جار؟

– أنا آسف دكتور ولكن يبدو أنها بسبب تلك المياه التى نغسل بها أفواهنا.

– قبلتُ اعتذارك ولكن أرجو أن تقول لى لننتهى من هذه المسألة.

– ماذا أقول لك؟ سأله رشيد النمر.

– تقول لى ما الذى قالته امرأتك حين طلبتَ منها أن تساعدك فى تحديد تلك الجهة.

– تصوّر، لقد قالت لى: وهل علىّ أن أقومَ بعملكَ الذى عليك أن تقوم به أيضاً.

– هذا شىء رهيب يصدرُ عن زوجة. علّق الدكتور. وأضاف: ولكن ما الذى تعنيه بقولها (أيضاً)؟

– الصحيح هذا ما يحيّرنى.

– إذن لنعُد إلى مسألة ابنك، صحيح أنها أكثر غموضاً وتعقيداً، إلاّ أنها تبدو لى شبه مفهومة.

– ما الذى تعنيه (بشبه مفهومة) و (أكثر تعقيداً)، و (أكثر غموضاً) كما لو أن تلك الجهة لا تكفينى لتضع هذه القضايا فوقها.

– لا أريد أن أربككَ أكثر، ولكننى أريد أن أقول لك أظنّ، والله أعلمُ، أنه بحاجة لعلاج ما. هذا أكيد.

– أنت تعرف، ما زال يحاول رغم كل ما مرَّ به. أحيانا يذهب ليبيع بعض الأشياء الصغيرة، كبائع متجوّل، ولكن الناس مزعجون أحياناً.

– أحيانا؟ بل دائماً. أنا أقول لكَ ذلك بصفتى الإنسانية كجار والعلْمية كأستاذ علِم اجتماع.

– ما الذى تعنيه؟

– لا شىء..

– أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه إن كنت تعنى شيئاً بكلامك هذا. قال له رشيد النمر بحزم.

– أبداً. كنتَ بدأتَ التحدُّث لى عن ابنك. وأن الناس يزعجونه، كيف؟

– أحيانا يبيع جوارب نسائية وحمّالات صدور وغيارات داخلية، وقبل يومين قال له أحدهم (عليكَ أن تفهم أنك لن تستطيع بيْع أيّ قطعة من هذه القطع) وحين سأله: لماذا؟ أجابه (لأنك تبيعها فارغةً، في حين تبيعها الفضائيات لنا طوال الوقت ممتلئة). وحين عاد الولد للبيت اختلى بغرفته سبعَ ليال وحين خرج، قال لى: فعلا، إنهم يبيعونها ممتلئة ويُعلِّمون الناس كيفية استعمالها أيضاً! وصمتَ رشيد النمر ثم قال: لم تكن أكثر من جملة واحدة، تعليق واحد قلَب حياة هذا الشاب الأليف، فهل تتصور مدى الانحطاط الذى بلغه الناس هذه الأيام؟

– ما الذى تعنيه بكلامك هذا، أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه إن كنت تعنى شيئاً بكلامك هذا؟

– أبداً، لا شىء.

– رغم ذلك، أصارحكَ، لا بدّ من علاج ما للولد.

– لأنه يراك فى الليل تتجوّل حول البناية؟!!

– بل لأن سَهَرَه، وهو شاب فى مقتبل العمر، إلى هذا الحد، يعنى أنه يعانى من أرق مرعب، وربما من حالة اكتئاب، كما يبدو لى، واسمح لى بقول هذه الملاحظة القاسية، يبدو لى أنه لا ينتظر شيئاً!

– لا أستطيع أن أؤكد ملاحظتك هذه، لكن ما يجعلنى مطمئناً أنه سيبدأ الانتظار الخاص به قريباً هو أنه ينتظر فى سريره كما أن ملابسه لا تفوح منها رائحة المجارى؟

– ما الذى تعنيه؟ أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه إن كنت تعنى شيئاً بكلامك هذا؟

– أظننى تأخرتُ كثيرا عن موعد عملى؟

– أظننى تأخرتُ أيضاً.

- بإمكانى أن أنقلك إلى أقرب مكان بسيارتى، إن كنت لا تمانع. وبعدها تواصل طريقك نحو عملك. عرض عليه الدكتور.

- شكرا لك، لستُ متأخراً إلى هذا الحد.

- لستَ متأخراً إلى هذا الحدّ؟ أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه إن كنت تعنى شيئاً بكلامك هذا؟

- أبداً، لا شىء.

بعد أيام، فتح عينيه بصعوبة ،

وجدَ نفسه فى السّرير،

وكذلك زوجته،

نهض وتفقّد أولاده، وجدهم فى فراشهم.

ابنته، حرص على ترتيب اللحاف فوق جسدها..

(لسبب ما كان يشك فى مسألة موتها)

حين نهضوا أخيراً، راحوا يتأمّلون الجدران حولهم بصمت، وقبل أن يلقوا عليه تحية الصباح. بدأوا بكاء جماعياً أدرك معه أنهم فهموا أخيراً أنه قاتلهم.

كان على وشك أن يعترف، حينما هبَّ أحدُ أولاده الموتى وأطبقَ بأصابعه الصغيرة على عنقه.

وللحظة انبثقتْ فى داخله نافورة الأبوة، فسالَ دمعُه.

– هل هذا يعنى أنك تحسُّ بما نحسّه؟ سأله الصغير.

– وأكثر. أجاب.

– إذن، اذهب واشتر لنا كلباً.

– تريدون كلباً إذن؟

– نعم. نريد كلباً لا يأكله الصقر.

– ولا شىء غير هذا؟

– لا شىء غير هذا.

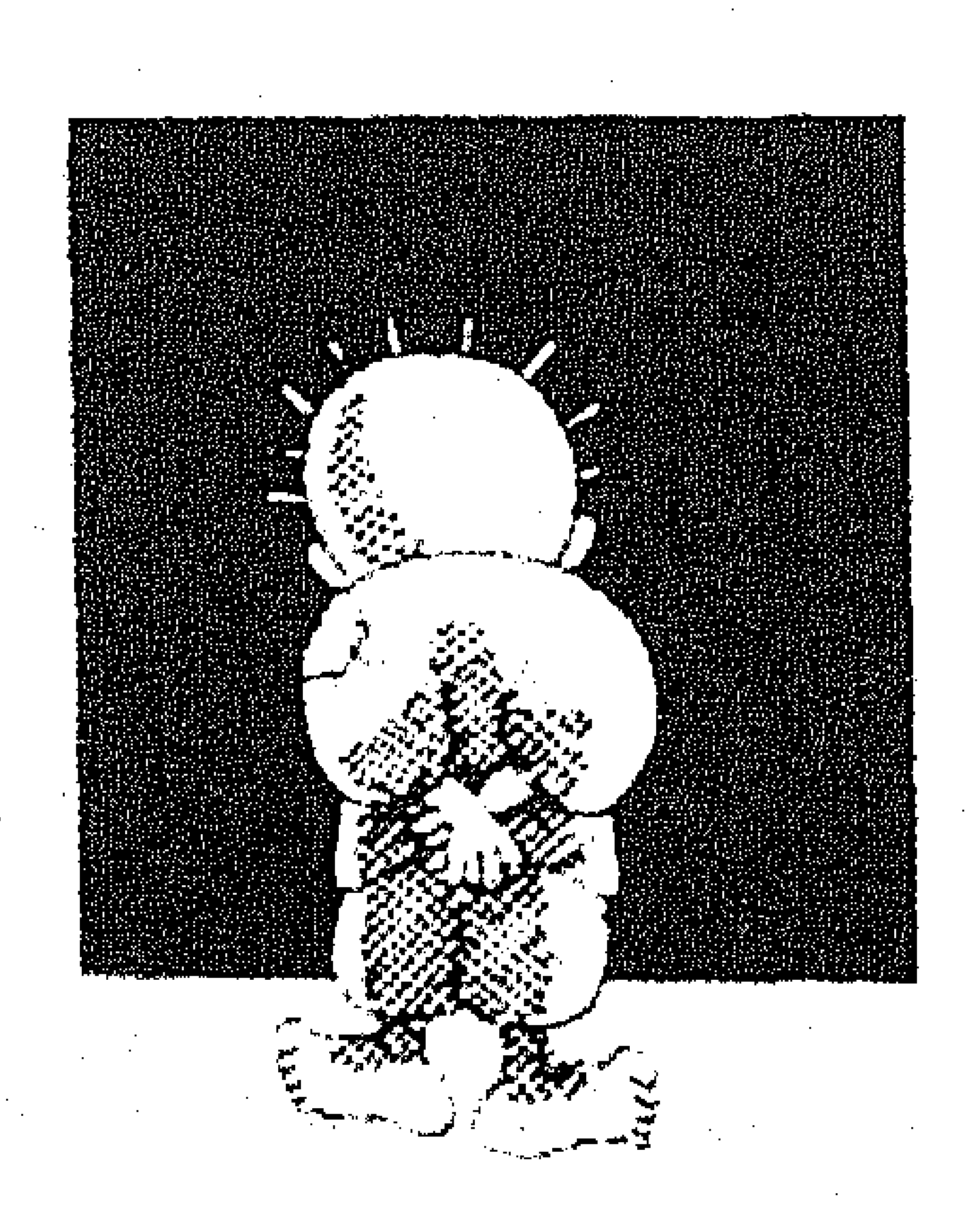
– لا عليكم.. كونوا مطمئنين.

– أكيد؟

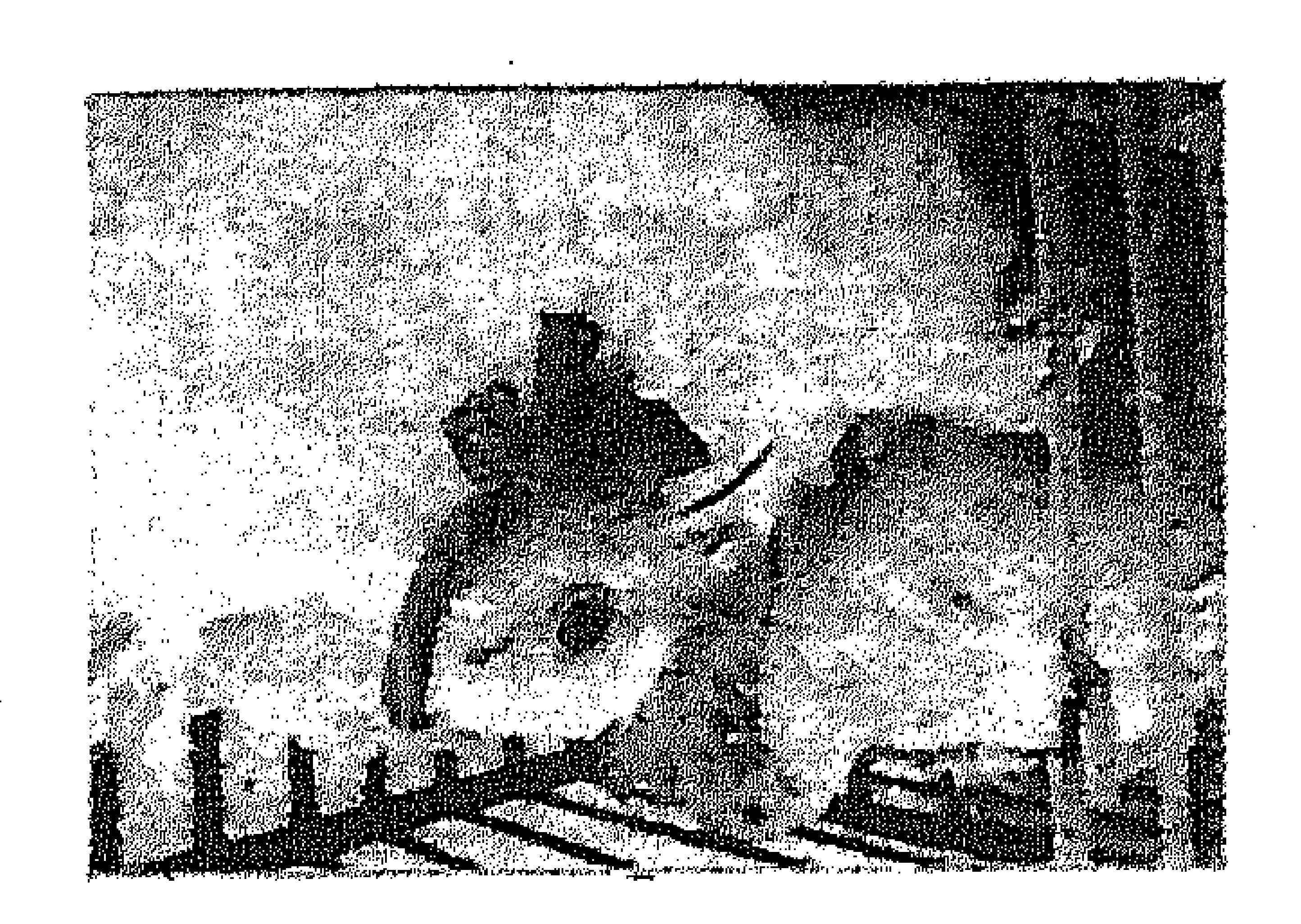
– أكيد.

كانت تلك فرصته المثالية التى لا تتكرر كثيراً فى حياة المرء: أن يطلب الأولاد شراء كلب للمرّة الثانية.

التفتَ إلى ابنته، كانت تنظرُ للداخل بصمت عاقدةً يديها خلف ظهرها بما يُذَكِّر كثيرا بحنظلة ـ طفل رسومات ناجى العلى..



حين رآه مقبلاً..
والقفص فى يده فارغاً انفرجَتْ أساريره
(بائع العصافير)
هبَّ من خلف الطاولة الكبيرة التى لم تكن فى الحقيقة غير قفص بسقف خشبى يؤهِّله أن يكون طاولة،
وعلى جانبيه بضعة أدراج أُعدَّتْ خصيصاً لعرض السّلاحف .
أما الطاولة الصغيرة التى كان يضع فوقها الهاتف فكانت مخصّصة لعدد من فراخ الدجاج ناصعة البياض. هذه الفراخ التى تؤدّى دوْراً لا يؤدّيه أىُّ عصفور حين يأتى رجل وقور ويطلب منه فى أحيان كثيرة عصفوراً يشبه دجاجة فيناوله إياها،
دون أن ينسى وضع شبرة حمراء معقودة كفراشة حول عنقها الطويل!



– بما أنكَ أصبحتَ من زبائنى ستحظى بمعاملة خاصة جداً. قال له بائع العصافير ذلك، وحتى قبْل أن يفتح فمه.
– فقط، أريد عصفوراً واحداً هذه المرّة.. وقفصاً أصغر.

– وهل أنت متأكّد من أن عصفورا واحدا يكفى. ماذا لو عاد فجأة وحط على الشرفة ولم يجد شيئاً يلتهمه؟ ما الذى ستقوله له؟

– أقول لَمَن؟

– أنتَ تعرف وأنا أعرف. ما دمتَ بدأتَ فإن عليك أن تواصل حتى النهاية.

– أواصل ماذا؟

– شراء العصافير له.

– إذن أنت تعرف!

– ومن لا يعرف ما حدث فى الشرفة!!

– وكيف عرفوا بالأمر؟

– إنك تُخيِّبَ أملى بك. عرفوا ببساطة لأن الأمر كلّه حدَثَ فى الشرفة!

– آه.

– أهذا كل ما يمكنك أن تقوله (آه) حين أقول لك أمراً خطيراً كهذا؟

– وماذا سأقول؟

– عليك أن تطلب منى تزويدك بعشرين أو ثلاثين عصفوراً على الأقل.

– لا. أريد عصفوراً واحداً، لا غير، هذه المرّة.

– ولماذا؟

– لأننى أحسّ تماماً بأننى رجل حرّ، وبأننى عملتُ ما علىَّ.

– رجل حرّ إذن!!

– نعم. رجل حرّ.

– وتريد عصفوراً واحداً!!

– نعم. لأننى رجل حرّ. ثم إن عصفوراً واحداً يكفى لتمثيل أبناء جنسه جميعهم فى بيتى.

– تريد عصفورا إذن يُمثِّلُ أبناءَ جنسه كلّهم فى بيتك؟

– نعم.

– وما الذى تريده. حسّون؟ ببغاء؟ كنارى؟ أم دُوْرِى؟

– أى عصفور سيفى بالغرض.

– ولكننى أحذّركَ من طلبكَ هذا. فحين يُمثِّل عصفور أبناءَ جنسه فإن ذلك يعنى أنه أكثر أهميّة من أى عصفور عادى.

– خلاص. اعطنى هذا.

– هذا ليس للبيع.

– وهذا؟

– هذا أيضاً ليس للبيع.

– وهذا؟

– وهذا أيضا ليس للبيع. ولكننى يمكن أن أبيعك القفص الذى هو فيه.

– وماذا أفعل بقفص لا عصفور فيه.

– تذهب بنفسك وتصطاد عصفوراً وتضعه فيه. ألم تقل بأنكَ بحاجة لعصفور يمثِّل العصافير كلها؟

– نعم.

– مثل هذا العصفور لا تستطيع شراءه، بل عليك أن تصطاده بنفسك.

– ولكننى لا أستطيع اصطياد بعوضة إن لم يكن فى البيت ذلك المُبيد، ثلاثىّ الإبادة، المعدُّ لأبناء جنسها.

– ولذلك عليك أن تتسلّح بفخٍ أو ربما بشبكة.

– لن أفلح في هذا. سأكسر قلب الأولاد مرة أخرى هم الذين ماتوا وهم يحلمون بوجود كلب ينبح في شرفتهم، يستقبلهم حين يعودون من المدرسة بفرح يفوق ذاك الذى لم يكونوا قادرين على سماعه في غناء العصافير.

وبدأ يبكى.

– لا تبكِ. قال له بائع العصافير. لا أنا ممن يحتملون البكاء ولا العصافير أيضاً، العصافير التى قد تبدأ بتقليدكَ الآن.

مسح دموعه: وما الحل؟

– بما أنك من زبائنى سأمدُّ لكَ يد المساعدة.

– أشكرك. أشكرك كثيراً.

– سأتركك تصطاد العصفور بنفسك داخل القفص.

– بفخ؟ أم بشبكة؟

– لا بهذا ولا بتلك. بيدك.

– وهل يُعتبر هذا النوع من الصّيد صيداً؟

– أفضل الصّيد وأكثره إعجازاً أن يستطيع المرء اصطياد عصفور بيديه العاريتين، إن ذلك يشبه إلى حد بعيد أن تتمكن من قتل أسد بالعراك معه.

***

هنا سنتوقّف قليلاً

لنعودَ إلى البدايات التى تركناها وراءنا هناك.. تنتظر..

الزائر الأول

ذات يوم، بعد ثلاثة أشهر من تعيينه، طُرِقَ الباب، ولسبب ما، تمنّى أن يكون الرجل العجوز هو من أتى.

لكنه لم يكن قد أدرك بعد، أن آخر شيء يفكر فيه الرجل العجوز، هو أن يعود ثالثةً لهذا المكان.

فتح الباب

لم يكن الرجل العجوز.

كانت صحفيّة في يدها كاميرا ضخمة، وذات عين بارزة جداً، ذكّرته بعيون (توم آند جيرى) عندما تقفز من محاجرها إلى الأمام لترى أكثر أو..

لم يسبق له من قبل أن أبصر مصوّرات، أو كاميرات كهذه، لا بدَّ أنها كاميرات مُعَدَّة بإتقان لالتقاط، أو اصطياد المشاهد؛ كما أن كل من صادفهم في حياته قبل عمله في المركز كانوا مصوِّرين، لكن الأمر لم يكن يُشْغِله كثيراً بحيث يوصلِه إلى نتيجة مفادها أن التصوير مهنة رجّالية.

ها قد اكتشف الآن.

بأنوثة وهدوء فائضين طلبتْ منه السماح لها بالتقاط بعض الصّور: نحن نعرف أنك المسؤول عن هذا المركز، وقبْلَكَ كان الرجل العجوز. بالمناسبة ما هي أخباره؟

– هل تعرفينه؟

- لا. ولكنهم حدّثونى عنه طويلاً قبل أن أحضر، وإذا بى، يا للمفاجأة، ليس أمام أىّ شاب، بل أمام شابٍّ وسيم.

- شكراً.

لسبب ما، لعِبَ الفأر فى عبّه، وقال فى نفسه: لم تُغدقْ علىَّ كلَّ هذا الغزَل إلا لتصعدَ إلى السطح.

وبعد دقائق بات على يقين لفرط حيويتها وتلك الجرأة التى سكنتْ عينيها، على يقين من أنها ما أُرسِلَتْ إلى هنا إلا كامتحان أول له. وفكَّر: كان علىَّ أن أستعين أكثر بخبرة الرجل العجوز، وأن أسمع منه بعض تفاصيل ما حدث معه طوال الفترة التى أمضاها فى المركز.

سألها: إذن أنتِ هنا للمرة الأولى؟

- أجل. وهزّتْ رأسها وهى تتصفّح السّاحة وترفع عينيها نحو السّطح فانطلقتْ خصلةٌ من شعرها للأعلى، حلَّقَتْ وحلقتْ ثم هبطتْ بهدوء على كتفها الأيمن مُخفيَةً نصف وجهها.

(صمتٌ)

- ممنوع!

- نعم!!

- الصعود إلى السطح ممنوع. قال لها.

- لا يُعْقَل أن يكون الأمر ممنوعاً حتى الآن. لقد قالوا لى إن بإمكانى الصعود إلى السطح، ولهذا السبب حضرتُ بهذه التَّنورة الطويلة!!

- لم تزل التعليمات كما هى (ممنوع التصوير من فوق السّطح).

- طيب! وهل سمحوا بتصوير المشاهِد الواقعة فى الغرب؟

- ممنوع التصوير فى هذا الاتجاه.

- ها أنتَ تعيدُنا من جديد لعصر الطاولة الذى حدَّثونى عنه. قالت له وهى تنظر نحو الطاولة فى داخل الغرفة شبه المعتمة.

- إنها التعليمات.

- خلاص. أمرى إلى الله.

طوال حديثه معها كان يفكر فى شىء واحد، ألاّ يتركها خلْفه حين يذهب لإحضار الطاولة، ولذلك، وجدتْ نفسَها مضطرَّة للسَّير معه نحو الغرفة شبه المعتمة، وقد دعاها لمساعدته فى حَمْل الطاولة.

فى الداخل، لاحتْ منها التفاتة صوب طاولة أعلى، فقالت بسرعة: هذه أفضل.

فردَّ بحزم: عندما نقول الطاولة هنا، فإننا نقصد هذه الطاولة لا غيرها.

- ولكننى قصيرة كما ترى، وفَرْقُ ارتفاع تلك الطاولة سيُعوِّض هذا القِصَر. قالت له بدلال.

- كان عليهم أن يرسلوا مُصوِّرة أطولَ منك، أو مصوِّراً.

عمَّ صمتٌ طويل، أدرك خلاله أن وظيفته الجديدة حوَّلته إلى رجل بلا لياقة فى أول لقاء له مع الصحفيين.

لكنه لم يفكر بالاعتذار، وبخاصة الآن، لأن الأمر سيبدو فى غير صالحه.

حملا الطاولة معاً والكاميرا الغريبة فوقها، حتى وصلا منتصف السّاحة.

تراجع أربع خطوات للوراء، تأمَّل الطاولة، تقدَّم وأزاحها قليلا نحو الشَّمال، ثم، ولكي يطمئنَّ قلبه أخرج البوصلة من جيبه، وضعها على سطح الطاولة، حدّد الجهات، ثم أخرج من جيبه قلمَ تخطيط أحمرَ ووضع دائرة على حافة الطاولة الغربيّة.

بصعوبة استطاعت الصعود إلى السّطح الخشبي. راقبها بدقة. هبَّ هواءٌ ملتهبٌ أثار الغبار وأطار تنّورتها بحيث كشف عن كل ما تحتها؛ ولأنها لم تتحرك محاولةً السيطرة على هذه الفوضى فإنه، بدوره، لم يُغمض عينيه.

***

بعد إطفاء الضوء امتدَّت يده إلى ما تحت ثوب نوم زوجته ، وخُيِّل إليه أن أصابعه لم تلمس سوى عاصفة مكتومة من الغبار الخشن.

استعادها.

آه أمّى !!

ذات يوم قالتْ له أمُّه التى أتيحَ لها أن ترى صاحبته: تلك البنت أخذتْها بلادُ لا يعود منها أحد. إنها مثل (بلاد الوداود التى تودى ولا تعاود). واعترفتْ له أن فتاة شقراء بعينين خضراوين (القْطَة) لكن الأمر قسمة ونصيب.

كان يومها فى طريقه للعمل بعيداً، حين وصلتْ صاحبته، فجأة، وأربكت المشهدَ فى قاعة المطار الصغيرة.

جاءت باكية، بعينين منتفختين، كما لو أنها كانت تبكى منذ ثلاث ليال على الأقل، لكنّ خضرتهما ظلّتْ واضحة رغم الاحمرار الذى شابها. أمّه رأتْ خُضرةَ عينى صاحبته، بياضها، قامتها الطويلة وامتلاءها، لكنها لم تغفر لابنها أبداً أنه نسىَ وجودها، حين راحَ ينظر طوال الوقت إلى تلك الفتاة التى دخلتْ حياته فجأة، فى حين أنها أمّه، أمّه التى حملته تسعة أشهر فى بطنها، أمّه التى أرضعته عامين ونصف العام بشهادة كلّ أقاربه.

راح ينظر لصاحبته، ناسياً كلَّ مَن حوله.

– كانت المرّة الأولى التى أرى فيها أحداً يبكى من أجلى دون أن يكون أخى أو أختى أو أمى أو خالتى.

بعد ذلك لم يرها أبداً.. وحين عاد من سفره الطويل قالت له أمه، وكانت عَمَلِيَّةً إلى حدٍّ أدهشه: البيضا إم عينين خُضر ما رايحة ترجع. وأفهمته (ما دام ينتظر عودتَها، فإن عليه ألاَّ يُضيِّع الوقتَ كلَّه فى الانتظار).

سألها: وماذا تعنين بألاّ أضيّع الوقتَ كلّه فى الانتظار.

قالت له: أعنى أن تتزوج بينما أنتَ تنتظرها، وهكذا يكون انتظارك أكثر جدوى. ولكننى لا أريد أن تفهم من ذلك أننى أشجعك على فقدان الأمل، فلعلَّها تُطلَّق أو تترمّل، والله كبير كما تعلَم.

وراقتْهُ الفكرة. فالتفتَ إلى أمه وقال: موافق.

فتأملته بفخر لم يره من قبل فى عينيها وقالت: نمر من ظَهر نمر.

***

حين انفرد بزوجة المستقبل أول مرة، قرر أن يستفيد من خبراته كلها، وفى أول فرصة لاحتْ لهما استحضر (الجنَّ) الذى ذهب هباء فى تلك الواقعة المشهورة مع صاحبته..

(سنأتى على ذكرها لاحقاً).

تجاوز الخطوة الوحيدة التى تفصلهما وقبلَّها. وأحسَّ بأن الجنَّ فَعَلَ فعْلَه هذه المرة، أكثر بكثير مما يجب، وأن قوته (الجنِّ) ظلّتْ ساكنةً، وربما تتفاعل، فى داخله حتى انفجرت بعد سنين، فجأة، فى ذلك اللقاء المدوّى مع زوجة المستقبل.

فيلم طويل

فى طريق عودته إلى البيت أعلنتْ دقاتُ بيغ بن الثانية ظهراً بتوقيت غرينش، الرابعة بالتوقيت المحلى.

لم يعد يسمع الإذاعات سوى فى سيارات السَّرفيس، وأحياناً في باصات النّقل العام.

بعد لحظات من بداية النشْرة أعلن المذيع بصوته العريض الأجشّ أن مراسل الإذاعة فى نيويورك معه على الخط.

كان الخبر عاجلاً، إذ أفاد المراسل أن طائرة صغيرة ارتطمت ببرج التجارة العالمى فى نيويورك. وحين سأله المذيع عن الخسائر أجاب المراسل: لم يتَّضح شيء بعد، وسأوافيكم بالتفاصيل بعد قليل.

فكّر رشيد النّمر فى الأمر، طائرة صغيرة ترتطم ببرج التجارة العالمى فى نيويورك، وبسبب ذلك يقطَعون نشرة الأخبار، ماذا لو كانت ارتطمت ببناية مركز التجارة العالمى نفسه!!

وتخيّل طائرة صغيرة تمرُّ وترتطم بهوائى تلفزيون أو حبل غسيل فوق بناية مرتفعة وتساءل ما المصيبة فى ذلك؟

باختصار، تعامل مع البرج باعتباره ذلك الجزء المُلْحَق بالبناية والذى قد يكون مُعَدّاً للاتصالات وما إلى ذلك.

مرَّ زمن طويل، أو هكذا خيِّل إليه، تتابعت الأخبارُ متدفِّقة مع صوت

المذيع الذى أعلن ثانيـة أن مـراسل الإذاعـة فى نيـويورك مـعـه على الخط مباشرة.

– هل هنالك أخبار جديدة عن الطائرة؟

– لقد علِمْنا للتّو أن طائرة صغيرة أخرى ارتطمتْ ببرج التجارة العالمى.

فكّرَ رشيد النمر: أىّ برج هذا الذى يصمد بعد ارتطام طائرة صغيرة به، لتأتى طائرةُ أخرى وتُكَرِّر الأمر؟

لكن صوت المذيع المنفعل أعاده ثانية لسماع النشرة.

– وهل تعتقد أن الأمر مُدَبَّر أم أنه عائد لعملية إرهابية مثلا؟

– لا أظن أنه عمل من هذا القَبيل. ردّ المراسل واثقاً.

– لكن اصطدام طائرتين ببـرج التـجـارة العـالمى لا يمكن أن يكون مصادفة!

– حتى الآن ليست هناك دلائل تشير إلى غير ذلك. لكننى سأوافيكم بما يستجدّ حول هذا الأمر.

***

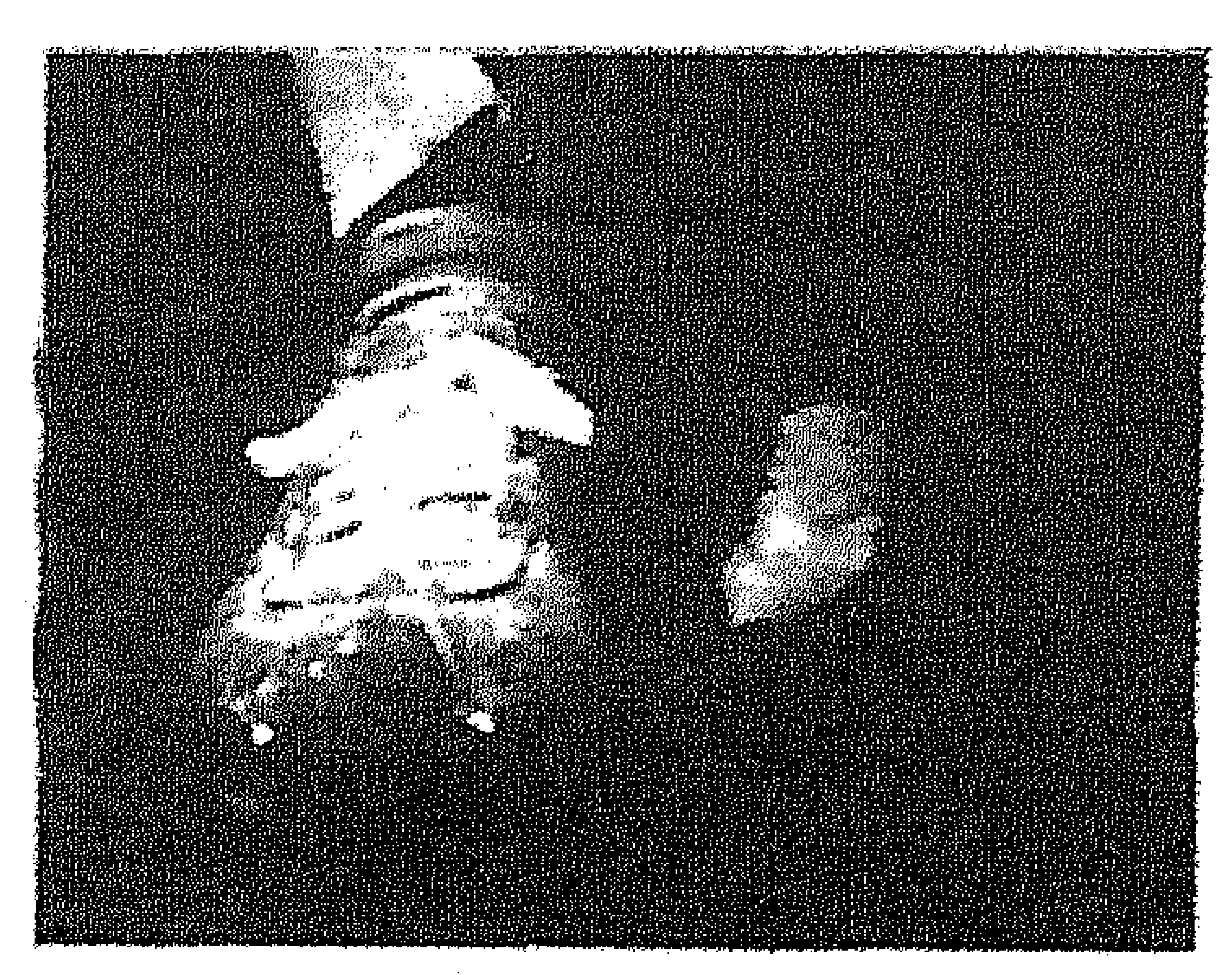
تناول رشـيـد النّمـر طعـام الغـداء على عَجَل، دون أن ينسى تفـقُّد العصفور..

نام، بجانبه امرأته التى تحرص دائماً فى الظهيرة على إخفاء رأسها تحت الغطاء، أكان الوقت شتاءً أم كان صيفاً.

كان النوم نعمة رشيد النمر، فما ان يضع رأسه على المخدة حتى يصبح فى عالم آخر تماماً.

مرّت فى حلمه عصافير كثيرة وكان باستطاعته أن ينتقى منها ما يشاء؛ فقط، كان عليه أن يُشير إلى أحدها حتى يراه إلى جانبه واقفاً بأدب جمٍّ،

ولم يغفر لنفسه أنه عاش حياته جاهلا لا يعرف فضائلها، وقد شجّعه ذلك أكثر، إذ راح يشير إلى العصافير كيفما اتّفَق، وكل عصفور يرى إصبع رشيد النمر يتّجه إليه كان ينعطف برشاقة استثنائية كما لو أنه طائرة حربية فائقة التطوُّر ويهبط كسهم ضاماً جناحيه وقبل أن يصل إلى جواره بمسافة متر واحد، على الأكثر، يفْرد جناحيه ويهبط بنعومة تلك الريشة التى هبطتْ على حذاء (فورست غامب) فى ذلك الفيلم الشهير.



كانت العصافير تقف إلى جانبه بانتظام عجيب، مثل طابور فائق الانضباط تنتظر إشارة منه..

أو هكذا خُيِّل إليه..

تأمّل السماء الزرقاء، فوجدها أكثر زرقة بعد انقشاع غيمة العصافير. التفتَ إلى الطابور المنتصب إلى جانبه الأيمن، ثم لذلك الواقف إلى جانبه الأيسر، ضم قبضته اليمنى، ضم قبضته اليسرى، رفعهما بسرعة وهوى بهما نحو الطابورين وقد أغمضَ عينيه غير راغب بمشاهدة انسحاق ذلك اللحم الصغير.

وحين فتح عينيه على صرخة زوجته التى تلقّتْ ضربة مجنونة أعادتها

للحياة، كانت العصافير تحوم فى فضاء الغرفة ناثرة الفوضى فى المكان، وكان ابنه الصغير يُشرع الباب، فتتسلُّ العصافير منه خارجةً، وهو يدعوه بسرعة لمشاهدة ذلك الفيلم الغريب الذى يبثّه التلفزيون على الهواء مباشرة.

– أهذا وقته؟

قال رشيد النمر لابنه.

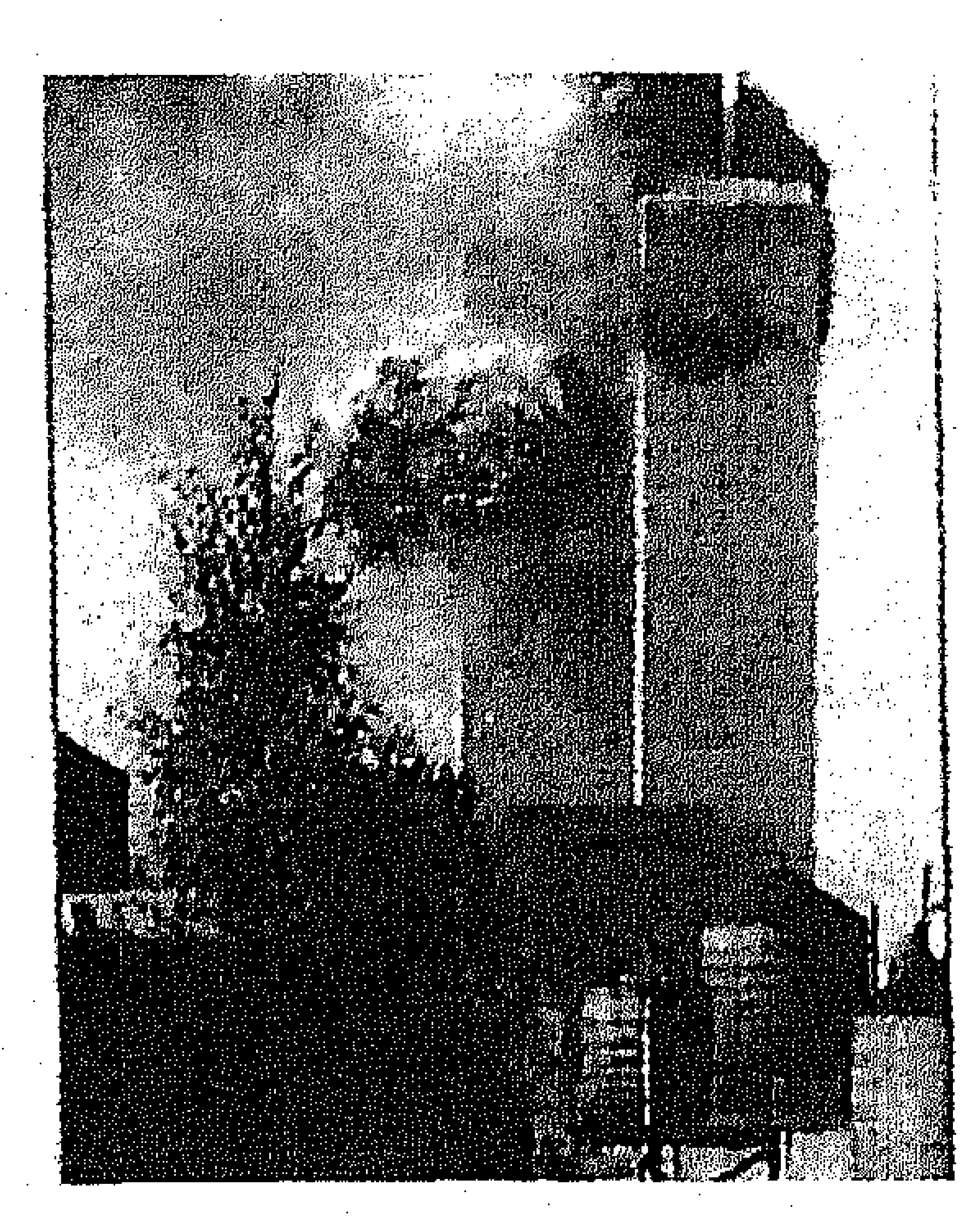
وبحنان لم يكن يعتقد أنه يسكن جنبيه راح يحاول وقف سيل الدَّم المتدفّق من أنف زوجته مستخدماً المناديل البيضاء المتوافرة بكثرة فى غرفة النوم (لعلَّ وعسى).

حين رأت زوجته فائض حنانه، قالت له: أرجو أن أراك، هكذا، مرة ثانية.

التقط خيط المعنى الرابض فى كلامها فقفز مبتعداً متتبِّعاً ذلك الممرّ الذى سلكته العصافير.

***

ثلاث ساعات أمضاها رشيد النمر أمام شاشة التلفزيون وهو يردد مرة بعد أخرى: مستحيل!!!



ويغمض عينيه نصف إغماضة كلّما أُعيد بثّ مشهدى ارتطام الطائرتين ببرجى مركز التجارة العالمى.

كان ترديده المتواصل للكلمة كافياً كى يُخرج ابنه الكبير من عتمة غرفته ليقف إلى جانبه مشدوها غير قادر على الجلوس أو التحرُّك وقد مسحتْ المشاهد المُتعاقبة أمام عينيه كلَّ ما شاهده من تطبيقات استخدامات الغيارات الداخلية! وحين استعادوا أنفسَهم، آخر الليل، من تلك المفاجأة التى عصفتْ بهم، التفتَ الولد الكبير إلى أبيه وقال: هل بإمكانى أن أطلب شيئاً؟

- ما تشاء. أجابه الأب المشْدوه.

- أن تشترى لى غداً نسخة من هذا الفيلم.

- حاضر!!

قهقهة المفارقة

كثيرون سيسألون الآن: وما أصل المشكلة؟

أو، حتى، سيصرخون وما المشكلة أصلاً؟

وقبل أن يفعلوا ذلك سأشير إلى رأسها المنتفخ وقهقهة المفارقة التى أسْكَنَها رشيد النمر الشرفة، حينما داهمه ذلك الشوق الرمزى الفج للأجنحة مرة أخرى، بعد وقت غير قصير من استلامه عمله الجديد، أعنى حين انتهز تلك الفرصة التى لا تتكرر فى حياة المرء أكثر من مرتين

(عودة الأولاد – بعد موتهم– إلى إلحاحهم القديم لاقتناء كلب)

وقد شجّعه على ذلك أن الصّقر لم يعد للظهور ثانية.

لكننا لم نقل إن الزمن كان قد تغير..

ولم تعد مسألة اقتناء العصافير أمراً عشوائياً.

ذهب واصطاد ذلك العصفور بنفسه داخل القفص . العصفور الذى سيمثل أبناء جنسه ، وقد استلم وثيقة من البائع ، مثل تلك الوثائق التى يحصل عليها المرء حينما يشترى ثلاجة أو سخّاناً شمسيّاً أو ميكروويف.

كانت الوثيقة واضحة ولا لَبْس فيها:

يضمن بائع العصفور إصلاح أى خلل قد يحدث فيه لمدة ستة أشهر على أن يكون الخلل عائداً لخطأ مصنعى، ويُستثنى من ذلك أىّ ضرر قد يلحق

بالطائر بسبب العبث به أو تعريضه لخطر مباشر أو ضوء قويّ أو وضعه تحت السماء الزرقاء أكثر من نصف ساعة في اليوم.

***

مع إطلالة شمس صباح اليوم التالى بدأ الأمر يختلف، إذ لاحظ فجأة أن ثمة ريشاً طويلاً راح ينمو فى طرفى جناحى العصفور..

وفى اليوم الثانى، تأكّد أن الأمر أخطر بكثير، إذ لمح فى عينى العصفور التماعةً لم يرها، حتى خبراء الطيور، فى عينىّ هذه المخلوقات الصغيرة منذ زمن طويل.

وفى اليوم الثالث لاحظ أن حجم العصفور تضاعف مرّتين على الأقل.

أما الشىء الذى لم يستطع التأكد منه، فهو إن كان ذلك يعود لخطأ طبيعى، أى مصنعى! أم لخطأ ما، ارتكَبَه، كأن يكون قد أعطى العصفور جرعة مضاعفة من الضوء أو السماء الزرقاء دون أن ينتبه

(هو يعرف أكثر من سواه أنه كان دائماً عُرْضة لنوبات (هكذا يدعوها) من الاستغراق في التفكير بأشياء ضبابية لا وجود لها كى لا يفكّر فى شىء)

***

حين حمَل العصفور أخيراً

ومضى نحو بائع الطيور

كان الأمر أشبه بفضيحة، إذ لم يسبق لأحد أن رأى عصفوراً من هذا النّوع بهذا الحجم من قبل.

بائع الطيور تأمَّلَ العصفور وقال له: إنها حالة فريدة!! هل يمكن أن تتركه عندى يوماً أو يومين لأتأكّد مما يحدث فيه؟

بل زاد وقال: يلزمه اختصاصي، ولحسن الحظ، هناك خبير يصل البلاد هذا المساء.

أما فى حقيقة الأمر فلم يكن هناك خبير ولا ما يحزنون، كما قالت العرب ولم تزل تقول.

حين عاد بعد يومين بعينين محمرّتين وأنف شاحب ويدين مرتجفتين كمصير مجهول، قال له بائع الطيور: اطمئن.. أظنّه كان أصغر مما يجب حين ابتعته، وهذا ما يُفسِّر الأمر. وبإمكاني أن أؤكد لك انه عصفور طبيعي.. طبيعي تماماً مثل تلك التي..

وكان يريد أن يقول: مثل تلك التي تراها فى كل مكان. إلى أن تذكَّر أن العصافير لم تعد من زمن طويل مُلْكاً للمواطن يراها فى أى وقت يشاء.

ما حدث،

كان يشبه إلى حدٍ بعيد قوانين الطوارئ، إذ تقرر تقنين مشاهدة الناس للطيور لأسباب يعرفها الناس لحسن الحظ، تماماً مثلما يعرفها من وضع هذه القوانين. وقد كانوا قلَّة، أولئك الذين تتاح لهم فرصة مشاهدة العصافير خطفاً أو سماع صوتها فى الساعات الأولى من الصباح، مثلما كان يحدث مع رشيد النمر. إذ ما إن تشرق الشمس حتى تختفى العصافير، أو ما تبقّى منها طليقاً، بعيداً عن أعين الفوهات وفخاخ الأولاد ونُقّيفاتهم، كما لو أنها وضعتْ لنفسها برنامجاً دقيقا للحذَر وتعاهدتْ على الالتزام ببنوده كافة.

لكن العصفور عصفور فى النهاية، ولا بد أن يتسلل الخدَرُ إلى حَذَرِه، كما قال أحد الكتّاب!! ويقع فريسة الغفلة أو الشّهوة المُستَعِرة فى دمه لدودة أو جُعْل، وهذه واحدة من المفارقات الغريبة فى عالم الطيور التى طالما شغلتْ

رشيد النمر، ونعني كيف يمكن لطائر يمتلكُ جناحين ويستطيع التحليق بهما أن تهفو نفسُه لدودة حقيرة تزحف ويخسر، في النهاية، أجنحتَه بسببها؟!!!!!

بائع الطيور رأى عيني رشيد النمر، أنفه، ولكنه بات على يقين من أن يديه باتتا أقلَّ ارتجافاً

ولكي يطمئنه أكثر قال له:

سأعطيك هديةً.. قفصاً أكبر.

وحين ناوله القفص الجميل بالقبّة المعدنية التي تنتهي بزركشة ملوّنة صاعدة كقمّة برج مقدّس، قال له ضاحكا: إذا كبر ثانيةً إلى ذلك الحد الذي يُمكن أن يضيق عليه قفص كهذا، فأنا مستعدّ أن أجلس مكانه في القفص وأدعه يبيع الناسَ كما أبيع الطيورَ في هذا المكان!

لكن رشيد النمر الذي لم يبتسم منذ..

لن نحدد تاريخاً لذلك،

فبإمكان كل واحد منكم أن يتذكّر التاريخ الذي يريد

إذا كان قُدِّرَ له الابتسام ذات يوم

وأعني: يبتسم فعلاً، لا أن ينشُرَ طرفي فمه كحبلين شاحبين على مسمارين صدئين طالعين واثقين رافعيّ الرأس (الرأسين)! شامخين مزهوّين بثباتهما من جدار إسمنتي.

لم يبتسم.

ولأول مرّة بات يحلم بوصول ذلك الذي وصل أخيراً.

خلف باب الشقّة مباشرة كان يجلس.

أشرع رشيد النمر الباب ففوجئ بابنه الكبير أمامه تماماً. أوشك أن يتعثر به.

- هل أحضرتَ لى الفيلم؟

- أىّ فيلم؟

- فيلم الطائرات التى اصطدمتْ بالبنايات.ودمَّرتها.

- لا لم أحضره.

- ولكننى أريده.

- قلتُ لك سيعيدون بثّه من جديد. كن مطمئناً.

- إننى أجلس أمام التلفزيون من يومها، ولا يفعلون أكثر من بثٍّ دعاية الفيلم، مقْطَع قصير ثم مقطع قصير، حتى الفضائيات المتخصصة بالغيارات الداخلية تبثّ دعايته باستمرار ولا أحد يقول بوضوح متى سيُعاد عرضه. أريد الفيلم يعنى أريد الفيلم.

- ولكنه ليس فيلماً بالمعنى الدقيق للأفلام. قال رشيد النمر لابنه وقد أحسَّ فجأة أن الولد لا يمزح.

- كيف لا يكون فيلماً، ألم يُعرض فى التلفزيون؟

- نعم عُرِض.

– وهل يعرضون فى التليفزيون الأفلام أم يعرضون التمثيليات الإذاعية؟

– الأفلام. كل شىء فى التلفزيون أفلام.

– لقد اعترفتَ إذن بأنه فيلم؟!

***

بعد ليال رنَّ جرس الهاتف فى الثالثة فجراً.

انتفض واقفاً.

– لا أراك هكذا إلا حين يرنُّ الهاتف. قالت امرأته.

– ماذا؟

ولم تُجب. كانت نائمة.

تناول سماعة الهاتف بيد مرتجفة.

– بيت رشيد النمر؟

– نعم. بيت رشيد النمر.

– هل باستطاعتك القدوم إلى الميناء لاستلام ابنك؟

– أى ابن؟ ومِن أين؟!!

– ابنك الأكبر، إنه يصرُّ على الصعود إلى ظهر حاملة الطائرات الأمريكية (كيتى هوك).

– ولماذا يصرّ على أمر كهذا؟

– لقد جاء ليُسلِّم نفسه للأمريكان مباشرة، ولكن، لحسن حظِّكم رفض الأمريكان قراره بتسليم نفسه.

– ولماذا؟

– لماذا رفضوا؟!

- لا. لماذا يكون مضطراً لتسليم نفسه، فى النهاية لم يكن ابنى فى حالة حرب معهم. على حدٍّ عِلْمى على الأقل.

- ليس لدىَّ وقت لمجادلتك، إذا كان لديك سيارة فبإمكانك أن تأتى لتأخذه، وإن لم يكن فستكون الشرطة مضطرّة أن تخدِمَ الشعب نظراً لبُعْد المسافة!

- أشكرك. سترسلونه لنا؟

- نعم. باستطاعتك أن تستلمه من مديرية شرطة العاصمة.

- أشكرك. متى؟

- حين تتوافر السيارة الذاهبة إلى هناك، أقصد باتجاهكم.

- شكراً.

***

سبعة أيام طويلة أمضاها رشيد النمر فى الانتظار أمام مديرية الشرطة. ولم يكن هناك سوى تلك الجملة الوحيدة التى تتكرر: السيارة فى الطريق!!

ولذلك، لم يجد حلاً سوى استئناف حياته من جديد.

مقابلة مع الرجل العجوز

لم يكن قد مضى الكثير من الزمن عندما قابلَ الرجل العجوز وجها لوجه فى أحد الشوارع، الشمس ساطعة على نحو غير عادى، وحرارتها تجعل الإسفلت تحت الأقدم يغلى، السيارات تُطْلِقُ أبواقها بالنّزق المعهود حين تتعطّل حركة المرور، وبعض الأولاد التصقوا بالشارع غير قادرين على تحريك أرجلهم.

– مرحبا . فاجأه.

– أهلا. مين الأخ؟! رد الرجل العجوز وهو يحاول اتِّقاءَ سيل حمم اللهب المُنهمر بمظلّته الموردّة..

– أنا .. أنا من جاء بعدك؟

– ملايين جاءت بعدى، فأىّ واحد منهم أنت؟!

وبدا الرجل العجوز أكثر شباباً من تلك الأيام وأكثر انشراحاً.

– أقصد أنا ذلك الذى استلم الوظيفة بعدك.

– ولم تزل تعمل هناك؟

– نعم، وقد كنت أتمنى أن تزورنى ذات يوم. ألم تحنّ لعملك القديم؟

– أنا ؟! أستغفر الله . ومَن يحنّ لذلك العمل . ولكن سامحنى ، لم أعرفك، ربما لأننى لم أقابلك سوى مرتين. مرتين على ما أظن، هل ذلك صحيح؟

– نعم مرتين فقط.

– وما الذى تريده منى إذن؟

– كنت أريد أن أسألك، لكي أكون أكثر اطمئناناً عن سير العمل، عما إذا كان عليَّ أن أتنبه لأشياء بعينها.

– تقصد في المركز الإعلامي؟

– أجل.

– لقد قلتُ لكَ كلَّ شيء. قلتُ لك المُهم وعدتُ وقلتُ لك الأهم. أليس كذلك؟

– نعم، وأنت لم تُقَصِّر فى هذا. ولكننى كنتُ أريد أن أسألكَ أكثر عن خبراتك في التعامل مع الصحفيين، نظرتك العميقة لهم، وكيف أُفرِّقُ بين هذا وذاك.

– ولماذا؟

– لأننى بحاجة لذلك. فقد باتَ حضورهم يتزايد فى الفترة الأخيرة. وقد حذرتَنى منهم، من الاتجاهات، الصعود إلى السطح، وأوصيتنى باعتماد الطاولة مقياساً. أليس كذلك؟

– أجل. ولكننى لا أستطيع أن أخدمَك في هذا، لأننى فى الحقيقة، وطوال فترة خدمتى لم أرَ أيّاً منهم.

– لم ترَ أياً منهم!!

– لم أرَ أيا منهم. فقد كنا نعيش مرحلةً ما قبل الديمقراطية.

– وماذا عن جهة الغرب هذه إذن، وما هو سرّها؟

أطبق الرجل العجوز فمه بحنق، ثم أشرعه بحنق أكبر.

– أنت لم تفهم كلمة واحدة مما قلتُ لك!!

واندفع مبتعداً.

تبعه: ما الذى حدث؟ هل أخطأت فى شىء؟

وظلّ الرجل العجوز مندفعاً وهو يتمتم: كنت أعتقد أنك صديق.

راح يراقب الرجل العجوز يختفى بين الناس.. تحت سيل الحِمَم المندفعة من جوف السماء، ووسط صرخات الأطفال الذين وجدوا أنفسهم غير قادرين على التحرُّك رغم محاولات المساعدة التى يبذلها آباؤهم. مظلته المورّدة تظهر وتختفى إلى أن اختفتْ نهاياتُ الشارع نفسها.

(أغنيــة)

عتمةٌ مثل ظلٍّ قديم على وشك الانهيارِ

فلا فرق بين وضوح الصوابِ

وقعْرِ الخطأ

أنتَ تعرفنا: أىّ هذا الظلامُ

فمَنْ قبل مَنْ

بين جدران هذا الظّلام انطفأ ؟!!

عصفور على الشرفة

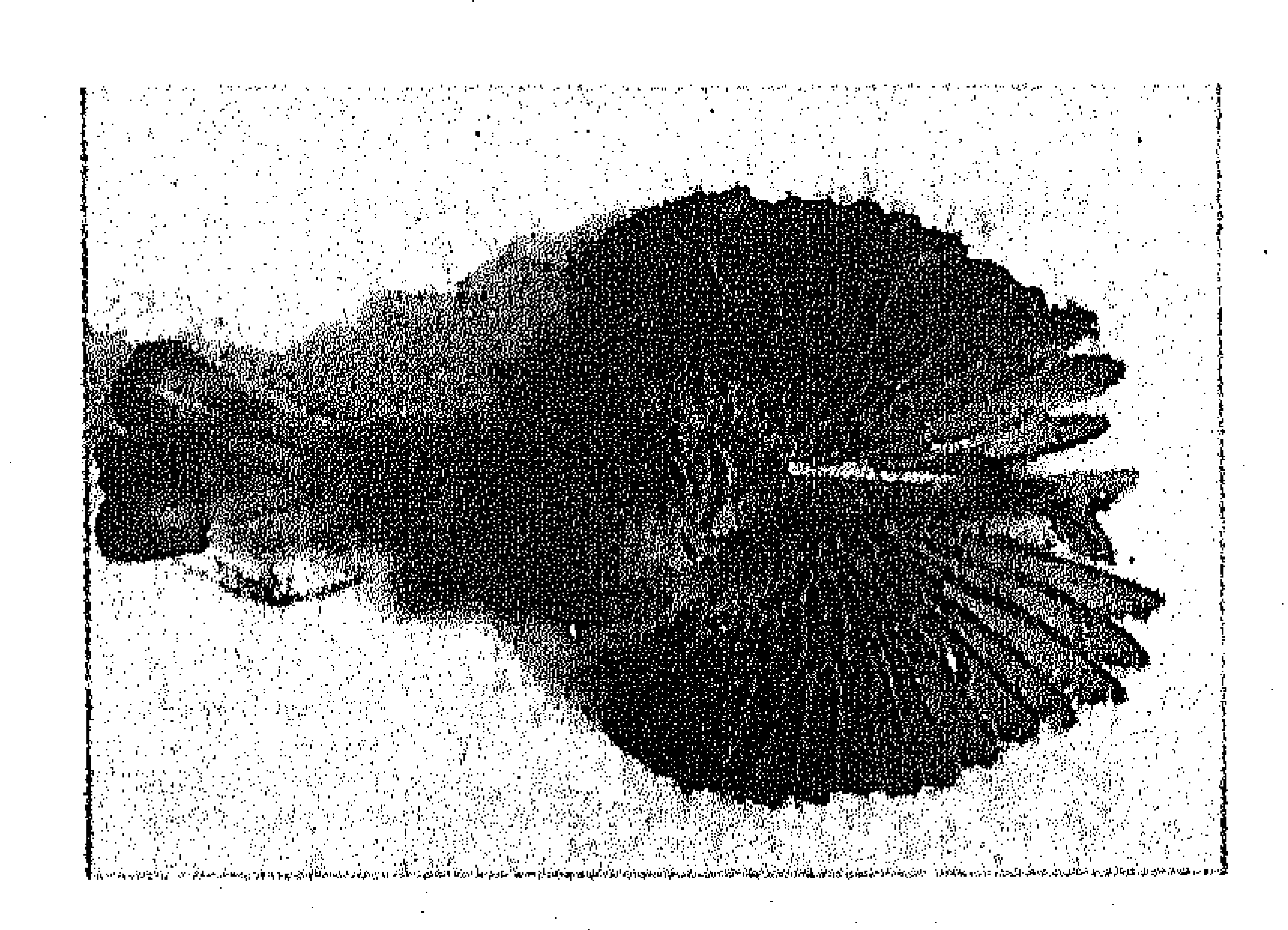
حدّق فى الشرفة بعد ثلاثة أيام، كان بودِّه أن يصرخ، لكن صرخةً تخرج لمجرد أن يُطْلقها صاحبها، صرخة لا يسمعها أحد، كانت تؤرّقه على الدّوام.

كان العصفور أكبر بكثير مما تخيَّله

يشبه دجاجة حمراء طويلة وبارعة فى تلفّتها نحو كل الجهات ولم يكن بحاجة إلى أن يكون عبقرياً كى يعرف السبب:

لقد أخذه النوم كثيراً، وباغتت الشمسُ الشرفة أكثرَ مما يجب..

وتذكَّر كيف أن هذا العصفور، كان يفردُ جناحيه كلما أطلَّتْ الشمسُ، بطريقة لم ير من قبل مثيلاً لها ويغفو:



وبفطنة الغريق الذى يرى قشّة فيتعلق بها جرى نحو القفص

حمله بصعوبة ووضعه فى المكان الوحيد الذى لا يمكن أن تصل إليه الشمس: (الحمَّام)

ولكى يطمئن أن أحداً من الموتى لن يُشعلَ الضوء
كتَبَ بخطِّه الذى كان دوماً جميلاً عبارة تحذير لا تحتمل اللبْس

ممنوع إشعال ضوء الحمام لأى سبب

تأمل ما كتبَ فأحس لوهلة أن الخط غير مقروء بصورة جيدة فعاد وكتبها من جديد

ممنوع إشعال ضوء الحمام لأي سبب

أرجع رأسه للوراء، نشر ذراعيه على امتدادهما، تأمَّل ما كتَبَ، همسَ: معقول.

لم يَدُم ذلك طويلا، فحتى الأموات يحتاجون للحمّام بين حين وآخر، هذا ما اكتشفه بعد نصف ساعة لا أكثر، حينما امتلأت مثانته، هو الذى نسىَ أن يفتتح النهار بدخول الحمّام كعادة كلّ الموتى الذين يتورّطون بغباء لا حدّ له بتربية العصافير فى الأقفاص.

نـزع لافتة التحذير ودخل!

لم تكن العتمة حالكة إلى ذلك الحدّ الذى لن يستطيع معه توجيه ذَكَره للمنتصف، (لكن الحذَر واجب).

فَعَلَها جالساً

إذ لم يكن يتصوّر فى النهاية احتمال تلوّث ريش العصفور ببعض الرذاذ.

حين انتهى خطرتْ له الفكرةُ الجهنميّة التى طالما تمنّى أن تخطر له: لماذا لا يعيشُ العصفور فى البيت ويعيش هو على الشرفة؟

وبدأ بالبحث عن حلول ملائمة لبقية الأموات

لكن الأمر لم يصل به إلى حدِّ التفكير بقتلهم مرّةً أخرى

وبصمت من يحوك مؤامرة فى ظلام هشٍّ

قرر أن يغافلهم

وأن يمضى بخطته: (العصفور فى الحمّام وهو على الشرفة)

واثقاً من أن أحداً منهم لن يلاحظ ما يدور

وإنْ لاحظَ، سيأتى إليه دهشاً ويسأله:

ما ذلك الشىء الذى فى الحمّام؟

***

من قديم

حذّرته أمّه من الفضول، وأكّدتْ له أنه قَتَل القِطّة.

وقالت له:

إياك ثم إياك أن يحدُثَ لك ذلك ، إذ لم يسبق أن وقع أى فرد من أفراد عائلة (النّمر) فى فخٍّ كهذا.

ولسنوات طويلة ظلّ يدور فى الشوارع متتبعاً خطوات القطط

إلاّ أنه لم ير الفضولَ يقتل أياً منها

هكذا قرر أن يُشعلَ الضوءَ بعد ستة أيام ليطمئن

كانت المفاجأة بحجم حبّة جوز كبيرة تسقط على رأس رجُل أقرع من شجرة استوائية شاهقة

كان العصفور قد غدا بحجم القفص تماماً

التصقتْ أعضاؤه ببعضها بعضاً وتداخلتْ



أشبه ببُقْجة ملابس قديمة أُعِدَّتْ للتصدير كان

ولم يكن لدى رشيد النمر سوى خيارين:

أن يترك القفص يتناثر بفعل ازدياد حجم العصفور

أو يذهب بنفسه للبحث عن مقصّ حديد

فى النهاية، اتخذ القرار الأول، دون أن ينسى التَّلفُّتَ حوله للتأكّد من أن أحداً لم يسمع دبيبَ الفكرة الحمقاء التى احتلَّتْ رأسه

ولكى لا يَسْفحَ الوقتَ على مذبح العتمة دون ثمن

ولكى تكون المخاطرةُ بحجمها الطبيعى

قرر أن يُبقى عينيه على العصفور

فمَن هو ذلك الرَّجل السعيد الذى أتيح له أن يرى بأمّ عينيه عصفوراً يكسر قفصاً، وفى الظلام!، دون مساعدة من أحد.

العتمةُ مثل حبَّة (فاليُوم)، إن لم تكن أقوى، هذا ما يعرفه

العتمة نصف النوم، أو لعلّها ثلاثة أرباعه

بعد أقل من ساعتين، نام

وحين نهض على ثقل غير عادى يمنعه من التَّنَفُّس وحدّق فى العتمة، أدرك أن العصفور قد غادر القفص، وأنه يجلس فوق صدره وأن مغامرته ذهبتْ أدراج الظلام حين لم ير بعينيه تمزُّقَ الأسلاك وخروجه من بينها خروجَ الصّوص من البيضة

كان عليه منذ البداية أن يكون أكثر قناعة

كان عليه أن يكتفى بتربية دجاجة بيضاء)كبقية الأموات الذين يستسلمون أخيرا أمام إلحاح أبنائهم) بدل التفكير بكائن ملعون كهذا.

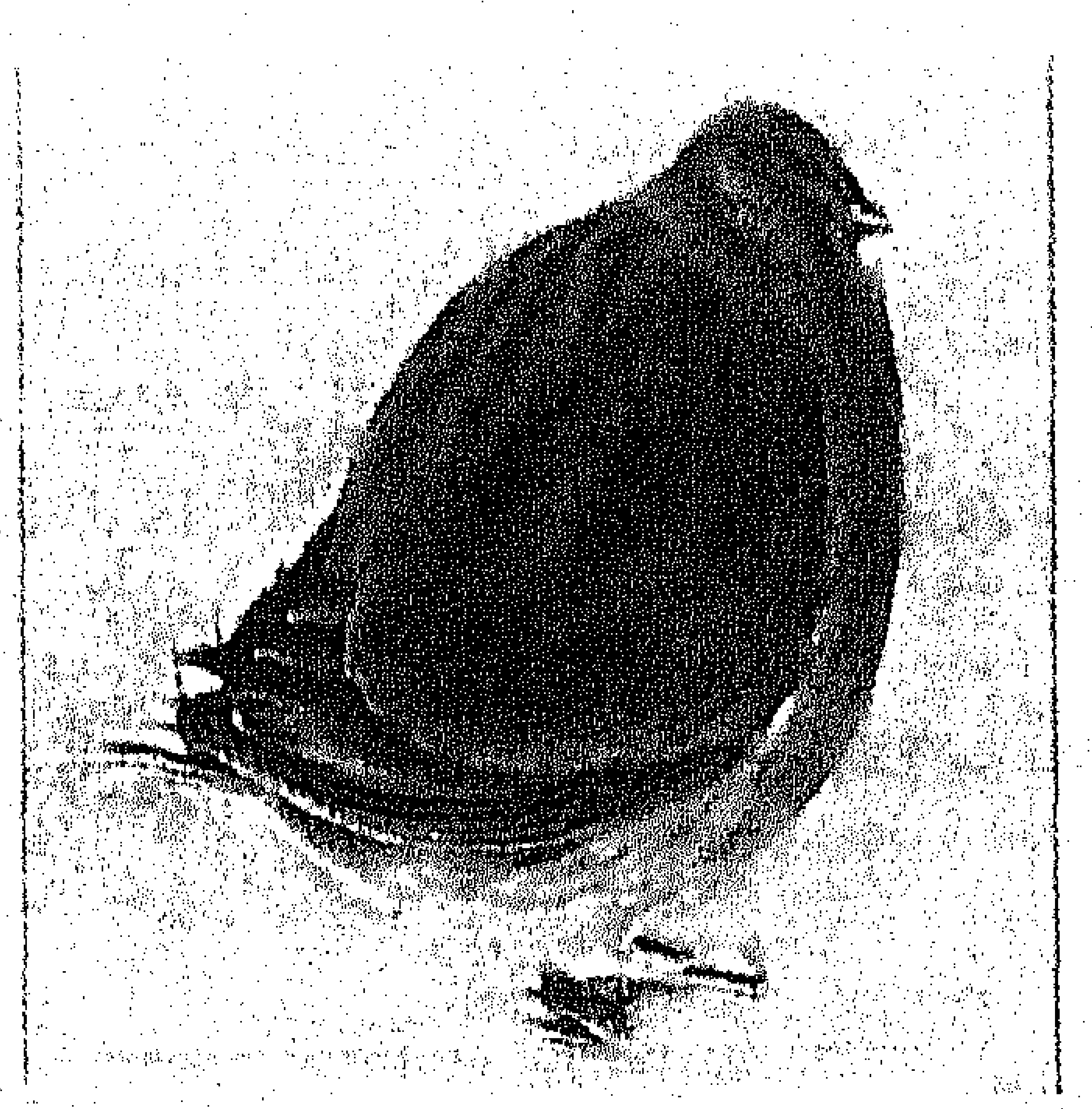
بصعوبة أزاح العصفور عن صدره،

أخذ نفَسَين عميقين مختلطين برائحة يعرفها تماماً،

أشرعَ الباب،

أشعلَ الضوء (مفتاح الإضاءة فى الخارج)، نظر إلى العصفوركان أقلّ حجماً مما تصوّره،

لكنه كان كبيراً



تذكّر العهد الذى قطعه بائع الطيور: إذا كبر ثانية إلى ذلك الحدِّ الذى يمكن أن يضيق عليه قفص كهذا، فأنا مستعدٌ أن أجلس مكانه فى القفص وأدَعَه يبيع الناسَ كما أبيع الطيورَ فى هذا المكان.

ولأنه يعرف أن بائع العصافير صادق

فقد فكّر بأن أفضل حلٍّ يقوم به هو ألاّ يمضى بالعصفور إلى هناك، كى لا يعود إلى البيت بقفص يتقافز فى داخله بائعُ عصافير.

علّق الحبل الذى أتى به من خزانة الملابس على مسمار فى الحائط، وأعنى ربطة العنق.

فبدا أشبه بتفصيل صغير فذ مقتطع من لوحة عظيمة لسلفادور دالى.

حبل أنيق، كم يفخر به، حبل ذكرى فاجأته امرأته به بعد ثلاثة مواعيد ونصف ملامسة لواحد من بنْصَريْها، سمحتْ له بها فى مطعم (الدّبلومات).

كان الحنين للماضى قد فاض به، الحنين لموعده الشهير مع صاحبته (سنأتى على ذِكْرِه لاحقاً)

الحنين الذى جعله يمضى بزوجة المستقبل إلى المكان الأثير نفسه ليَقتُل ذلك الحنينَ أو يقتله ذلك الحنينُ كما قَتَل الفضول القطة.

ولأن العصفور لم ير السِّكين التى دسّها صاحبه تحت القميص، فقد مضى بزهو نحو الشرفة، مثل طفل يمضى به والده نحو البريّة للمرّة الأولى..

وكم عذّبه هذا..

كان يريد منه أن يتفلّتَ، أن يرفَّ بأجنحته أن يضربه بمخالبه التى لم

تعد صغيرة، لكنه مضى بزهْو معه نحو الشرفة.

فى منتصف الممرّ توقّف، فتوقّف العصفور، نظر خلفه، فنظر العصفور إلى حيث ينظر

(ماذا لو أعدته للبائع)

طرد الفكرة، وقد تخيل منظره يسير فى الشارع وبجانبه عصفور بهذا الحجم.

أما الشىء الذى لم يكن يعرفه فهو أن مشكلته كانت مشكلة كلٍّ من لديه عصفور بهذا المستوى!

وهكذا، كان عليه أن يتصرّف بصمت، كما تصرّفوا جميعاً

إنه الحسّ العظيم الذى طالما انتشر ووحّد قلوبَ الجميع هنا دون أن يتبادلوا كلمة واحدة حول ما يقضُّ مضاجعَ أرواحهم

كأنهم جميعا أفراد عائلة واحدة.. عائلته، عائلة (النّمر)

ورغم أن الوقت كان ما بعد منتصف الليل بقليل، إلا أن العصفور مضى للشرفة كما لو أن الشمس تنتظره فيها، ولم يكن حسّ العصفور بالشمس ناجماً عن قلة فَهْمٍ أو تقدير، لا لشىء، إلا لأنَّ الشّرفة، وكما يعرف البشر أنفسهم، مهيأة دائماً لاستقبال الشمس كلّما فكّرَتْ بزيارة أهل البيت

وإذا ما ذهبنا أبعد فسنقول: الشرفة كرسىُّ الشمس.

كان يتقدَّم عن العصفور نصف خطوة، وحين وصل باب الشرفة الزجاجى حرصَ أن يغدو نصفُ الخطوة خطوتين.

فتح الباب الزجاجى، حشرَ جسْمَه، وحينما حاول العصفور أن يتبعه، أغلق الباب بسرعة فأصبح رأس العصفور فى الشرفة وجسده فى الممر

(حركة بارعة)

بخبرة العصافير التى توارثتها على مدى الزمان، أدرك العصفور أنه وقع فى الفخ، وأنه سيموت، لكن يأسه لم يمنعه من أن يحلم بشمس تشرق فجأة ساطعة على غير عادتها، فيكبر أكثر وأكثر فلا تغدو السكّين، التى التمعتْ، أكثرَ من شوكةٍ، مقارنة بحجم رقبته، ويكون مصير البيتِ مصيرَ القفص

لكن الشمس لا تشرق هكذا. هو يعرف ذلك وصاحبه يعرف.

فكّر بمراقبة العصفور سويعات أخرى، قبل شروق الشمس، ليعرف كم يكبر العصفور فى ساعة، لكنه تراجع عن فكرته، فماذا لو أخذه النوم ثانية وداهمته الشمس في الشرفة ورآها العصفور.

– سيمزّق البيتَ عندها كما مزّق القفص.

برشاقة رجل ذبح رَفّاً من طيور مماثلة

هوى بالسكّين على رقبة العصفور، تناثر دم غريب، لو لم يكن عاقلا كما ينبغى له أن يكون، لقال بأن الدم لم يك أحمر

كانت الخطّة محكمة تماماً

ظلَّ يراقب خفقاتِ الأجنحة خلف الزجاج حتى هدأتْ تماماً

وعندها أبصرَ ما لم يكن فى الحسبان

كان ريش الطائر قد تناثر كلّه، وبدا الطائر الذبيح جاهزاً لكى يُحْمَل إلى طنجرة أو فُرْن، بعد عملية تنظيف للأحشاء لا بدّ منها فى مثل هذه الحالات.

تلفّتَ حوله، وخُيِّل إليه أن هنالك أكثر من رجل يتحرّك فى الشُّرفات المقابلة.

أشـرع البابَ ودخـل، وقبل أن يُشـعل الضـوء، أدرك أن البـيت قـد امتـلأ بريش العصفور.

أشعل الضوء

وكما لو أن الضوء ريح هبّتْ من كل الجهات، التفتَ فرأى الشرفات التى خلْفه قد أضيئت.

فوجئتْ ظلالُ الرجال بظلال الرجال وفى لمح البصر أُسْدِلَت الستائر.. لكن ذلك لم يمنع تسلل حُزَم الضوء منها.

لم يكن هناك من أمر يُمكن أن يُشفى غليله أكثر من أن يأكل العصفور، يطحن عظامه بأسنانه ويُمزِّق لحمَه بأظافره

لكنه تراجع عـن ذلك؛ فماذا لو كان العصفور مصاباً بمرض غريب؛ وهو مصـاب بالتأكيد، فينتقل المرض إليه ويصيبه ما أصابه، بحيث يغدو البيت ضيّقاً عليه، ويغـدو هو نفسه مثل بقجـة ملابس قديمة مُعَدَّة للتّصدير.

أطفأ الضوء، أشرع البابَ بسرعة، وبصعوبة تمكّن من حَمْل العصفور وإلقائه إلى الشارع

وعندها، سمع أكثر من ارتطام لحم عصفورىٍّ بالرصيفين المتقابلين

وتأكّد له أن أذنيـه فى مكانهمـا حينما سمع أبواب الشرفـات تُقْفَلُ على عَجَل.

أشعل الضوء

ولثلاثة أيام بلياليـها ظلّ يجْمَع الريشَ فى أغطيـة المخدّات وفى أغطيـة اللُّحف، وعندما انتهى من العثور على آخر ريشة.. نام

بعد زمن استيقظ، فأيقن أنه لم ينم قبل هذا النوم بمثل هذه الراحة

ولم يكن بحاجة للبحث عن سببٍ وقد كان ريش العصفور تحته وفوقه يملأ بطون الأغطية والوسائد.

– هل ارتحتَ؟!! قلتُ لكَ منذ البداية إنه بحاجة لعلاج. ألم أقل لك إنه بحاجة لعلاج؟

– لقد قلتَ لى.

– وها أنت تُلقي بالنصيحة عرضَ الحائط. بنصيحة واحد مثلى، أستاذ علِم اجتماع تخرَّجَ من تحت يديه آلاف الطلبة على مرِّ السنين.

لم يجد رشيد النمر مَخرَجاً يفرُّ منه أمام ذلك الهجوم الكاسح سوى أن يقترب أكثر من الدكتور محاولا تشمّمَ ملابسه بصورة أدق وقد أحسَّ بلذعة رائحةٍ كريهة.

– ما الذى تتشمّمه؟

– لا شيء.

– أتريد أن تقول لى إننى لم أزل أصحو ليلا لأُغلقَ الساعات لتصعدَ المياه إلى خزانى الخاص دون خزانات الجيران؟

– ومن قال هذا؟

– ابنك. الجيران. كلّهم يرددون هذا.

– تلك مسألة قديمة، أليس كذلك؟

– نعم إنها قديمة، ولكن رائحة المياه لم تزل مثلما كانت دائماً.

– ربما كان ذلك بسبب تلوث الأنابيب نفسها. إنها تحتاج للكثير من الوقت حتى تعودَ نظيفةً مثلما كانت.

– تصورّ، لم يعد الإنسان قادراً على فَتْح فمه أمام تلامذته بصورة طبيعية.

– أفهم ذلك.

– تصوّر أنه لم يعُد قادراً على الاقتراب من أىّ شخص دون وجود مسافة أمان.

– أتصور ذلك. لقد أدركت الحكومةُ الأمرَ فمنذ أيام مُنِعَ أىُّ شاب أن يقترب من فتاته فى الأماكن العامة دون أن تكون بينهما مسافة أمان (ستّون سنتمتراً على الأقل) هل تعتقد أن الحكومة تقوم بذلك رأفةً بحال الحبّ ومستقبل العشاق؟

الحكومة تحدد مسافة أمان بين الشباب والفتيات فى الأماكن العامة

أصدر وزير الداخلية قرارا حدد بموجبه مسافة الأمان التى لابد من توفرها بين أى شاب وأى فتاة يجتمعان فى مكان عام موضحا إلى أنها لا يجب أن تقل عن ستين سنتيمترا ، وحذر من أى خرق لهذا القرار مشيرا إلى أن دوريات من الشرطة ستكلف بمتابعة هذه القضية لما باتت تتركه من آثار سلبية على صورة البلد من النواحى الأخلاقية .

– ربما، ولكننى لستُ أدرى إن كانت هذه المسافة كافية أم لا. أجاب الدكتور. هل تعتقد أنها كافية؟

– لا أظن.

– ما الذى تعنيه من كلامك هذا؟ أرجو أن تقول لى ما الذى تعنيه فعلا؟

– لا شىء.

– يبدو أننا على وشك الاختلاف، لنعد إلى مسألة ابنك. هذا أفضل. لماذا لم يُسلِّم نفسه هنا للشرطة، وهى بدورِها تُسلِّمه لـ (كيتى هوك)، كان على الأقل، سيوفّر عناء رحلة ثلاثمائة كيلو متر يقْطعها بنفسه ذاهباً ويقْطعها فى سيارات الشرطة آيباً؟

– هذا ما يُحيّرنى.

– ما الذى يُحيّرك فيما يُحيّرك؟

– يحيّرنى الذى يحيّرنى فعلاً.

– إذن فأنتَ تتّفق معى بأنه مجنون. فمن ذلك الذى ينسى أن هناك اتفاقية دفاع مشترك بيننا وبين أمريكا؟!

– أظنه نسىَ ذلك، ولكن هذا لا يعنى أنه مجنون.

– تعريفى للمجنون هو من يتجاهل أو ينسى أمراً مُعْلَناً بوضوح ومتَّفق عليه كهذه (الاتفاقيات)؟

– ما الذى تعنيه بكلامك هذا؟ أرجو أن تقول لى ما الذى تعنيه فعلا؟

زمجر رشيد النمر غاضباً.

– لا شىء.

– دعنا نُبسِّط الحكاية حتى لا نختلف أكثر.

– تفضّل.

– ابنك يتابع نشرات الأخبار؟

– نعم.

– وفجأة تقع أحداث ١١ سبتمبر؟

– نعم.

– يختفى فى غرفته أياماً طويلة بلياليها، وهو يتنقَّلُ ما بين محطات الغيارات الداخلية وفى النهاية يغادر غرفته ويذهب للمرآة؟

– نعم.

– وفيها يرى أن لحيته طالت كما لو أنه ليس هو؟

– نعم.

– تحين منه التفاتة نحو جهاز التلفزيون فى غرفة الجلوس ويرى صوَرَ المتّهمين بتنفيذ هذه العملية الكبرى معروضة فى نشرة الأخبار؟

– نعم.

– يعود للمرآة ثانية ليتأكد مما رآه فيها منذ لحظات؟

– نعم.

– يتأكد، فيعود لشاشة التلفزيون من جديد؟

– نعم.

– وبين صور المتّهمين والمطلوبين يرى ابنك صورته؟

– نعم.

– لحيته طالتْ بما فيه الكفاية بحيث حَسَمتْ الشك باليقين؟

– نعم.

– وهكذا يمضى بنفسه لتسليم نفسه وهو يصيح كما قيل (أين المفر)؟

– نعم.

– لكنهم يعيدونه؟

- نعم.

- لأنهم بحاجة لإلقاء القبض على المتهمين الحقيقيين لا على من يأخذ على عاتقه واجب تنصيب نفسه متّهماً، لمجرد أن لحيته طالت دون أن يدرى وهو يُتابع ذلك الفيلم الذى لا ينتهى، الفيلم الذى تبثه محطات الغيارات الداخلية أيضاً على مدار الساعة؟

- نعم.

- أوليسَ مجنوناً من يعتقد أن أمريكا يمكن أن تتّخذه عدوّاً، لا لشىء، إلا لأنه يريد أن يُحقق شهوة أن يكون عدوّاً؟

- نعم. ولكن الأمر مختلف. الولد لا يريد أن يكون عدوّاً لأمريكا، لا تُلْقِ عليه تهمة بهذا الحجم، تهمة لا تغفرها أمريكا ولا من وقّعوا اتفاقية الدّفاع المشترك معها.

- المعذرة. لم أكن أقصد ذلك.

- وما الذى تقصده؟

مرَّت عدّة طائرات فى سماء المحادثة السّاخنة مُطْلَقَةً خلْفها ذلك الدخان الأبيض، ذهبتْ وعادتْ، شرّقتْ وغرّبتْ، شمّلتْ وجنوبَتْ. وحين غادرت كانت السماء على شكل قفص هائل وقد تحوَّلتْ خيوطُ الدخان إلى قضبان حديدية رمادية عملاقة.

نظر الدكتور إلى السماء وأطلق تنهيدة عميقة.

- هل ما زلت معى؟ سأله رشيد النّمر وقد أحسّ بنفسه وحيداً.

– المعذرة. هذا المشهد ذكّرنى كثيرا بعملى الجديد؟

– وهل هناك عمل آخر غير الجامعة والتدريس؟

– فى فترات فراغى، وهى كثيرة والحمد لله، أسستُ مشروعاً جديدا يمكنكَ أن تُسميه: تجارة الأقفاص؟

– تجارة الأقفاص؟ قال رشيد النمر ذلك وقد نسىَ أن يُغْلِقَ فمه لفرْط الدهشة.

– نعم. تجارة الأقفاص. إنها تجارة المستقبل.

– تجارة المستقبل؟!!

– أجل. وإن كنت تريد الأخذ بنصيحتى فابدأ منذ الآن.

– ولماذا؟

– كم عمرك؟ لا. لا أريد أن أعرف. لأننى لا أظن أنك قد وصلتَ بعد إلى سنٍّ الحكمة ذاك.

– أىّ حكمة وأى سن؟

– السنّ الذى تُدركُ فيه أن الإنسان يمكن أن يتخلّى عن كل شىء، باستثناء القفص.

– وهل أنا محتاج للوصول إلى ذلك العمر كى أعرف أن صاحب العصفور بحاجة دائما لقفص؟

– مَنْ يتحدَّث عن الطيور هذه الأيام؟

– أنا.

– أعرف هذا الانشغال الفجّ بعصفور الشّرفة.

– وكيف تعرف؟

– ألا يحدُثُ الأمر فى الشّرفة؟!

– أجل.

– كيف لا أعرف به إذن؟

وصمت الدكتور كثيراً، ثم قال له: لسبب ما أحببتُكَ كثيراً، لأنك تذكّرنى بشبابى على نحو غير عادى. (لا فرق كبيراً فى الحقيقة بين عُمريهما) نصيحتى لك: هذا أفضل عمل يمكن أن تختتم به حياتك.

– ولماذا؟

– عجيب!! لم تزل تسألنى: لماذا؟

– نعم. لماذا؟

– لأنه لا يمكن أن يكون هناك رجل فى العالم يشعر بحريته أكثر من ذلك الذى يبيع الأقفاص. هل فهمت؟

– لا.

– أين كنا إذن؟ سأل الدكتورُ.

– لا أعرف.

– كأنك لم تكن تسمعنى.

– وكأنك لم تكن تعنى ما تقول، وإلا لتذكَّرتَ.

– ما الذى تعنيه بكلامك هذا؟ أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه، إن كنت تعنى شيئاً بكلامك هذا؟

– لا شىء.

– ها قد تذكّرت. أترى لقد كنتُ أعنى كل كلمة قلتُها لك. ألم أقل لكَ إن الولد بحاجة لعلاج؟

– لا لم تقل. أقصد هذا ليس آخر شىء قلته لى قبل وصول الطائرات.

– ربما، ولكن المشكلة تكمن هنا.

– وما الحل؟

– الحل بسيط.

– وما هو.

– هناك زميل في الجامعة لديه ابن لا تختلف حالته عن حالة ابنك بشيء سوى أنه لم يُسلِّم نفسَه.

– وماذا حدَثَ له؟

– أُصبح مُطارَداً، هكذا بكلٍّ سهولة. ولكن زميلي تداركَ الأمر وحلَّ المشكلة؟

– مع أمريكا؟

– لا.

– مع الحكومة بما يتّفق ومعاهدة الدفاع المشترك؟!

– لا.

– مع مَنْ إذن؟!

– هناك رجل مؤمن يعالج مثل هذه الحالات يسكن في مدينة لا تبعد أكثر من ثلاثين كيلومتراً من هنا، حيث نقف.

– مُشعوذ يعني؟!

– لا تقل ذلك، إياك أن تقول عنه كلاماً كهذا. إياك.

– حاضر. وهل تعرفه؟

– لديَّ رقم هاتفه الخلوي.

– خلوي؟

– نعم رقم هاتفه الخلوي.

- وهل يمكن أن تُعالَجَ قضية بهذه الخطورة على هذا النحو؟
- الأمر مُجرَّبٌ وبإمكانك أن تتّصل الآن مع زميلي الدكتور.
- لا ضرورة لذلك. أصدّقك.
- لحظة.

راح الدكتور يضغط مفاتيح أرقام هاتفه الخلوي بسرعة غير عادية، وبعد قليل هتف بابتهاج: السلام عليكم (أبو العبد).

- ....
- لن أطيل عليك. لدينا حاله مثل حالة ابن زميلي. ربما أصعب بقليل.
- ....
- اسألْهُ عن الأجر الذي يريده. همس رشيد النمر للدكتور.

فأشار له الدكتور بحركة من يده التزامَ الصّمت.

- هذا الولد يعزٌّ عليَّ كثيراً، وأبوه صديقي.

انفرجتْ أساريرُ رشيد النمر.

- ....
- ولذلك نريدُ أن تُراعيه قليلاً.
- ...
- التّسعيرة ثابتة منذ ذلك اليوم المشهود؟
- ...
- كم يريد؟ همس رشيد النمر.

أغلق الدكتور الهاتف براحة يده وهمس بسرعة.

- مئة دولار. ماذا أقول له؟
- مئة دولار!!
- بسرعة. لا أظن أن لديه وقتاً.

– أوكى. همس رشيد النمر.

– هل هناك أىّ طلبات أخرى للعلاج؟

– ...

– تفضَّل.

أشار الدكتور لرشيد النمر أن يدوِّن الطَّلَبات بسرعة.

– تفضَّل.

– أُكتُبْ.

دُورى وببغا وزرزور

بلبل حسّون وشحرور

كنارى بيضوى كالنُّور

– كنارى بيضوى كالنُّور!!! ردد رشيد النمر مستغرباً.

– نعم. كنارى بيضوى كالنُّور. زجره الدكتور.

– تسألنى كم أصبح عددها؟! كم أصبح عددها؟ سأل الدكتورُ رشيدَ النمر. الذى راح يعدّها بسرعة.

– سبعة.

– سبعة.

أغلق الدكتور هاتفه، حدَّق فى وجه جاره ثم قال بهدوء: الآن الكُرة فى ملعبك.

– شكراً لك.

– لا شكر على واجب فالجارُ للجارِ حتى لو جارَ!!

– ما الذى تعنيه بكلامك هذا؟ أرجو أن تقول لى بصراحة ما الذى تعنيه إن كنت تعنى شيئاً بكلامك هذا؟

– لا شىء.

يوميـات ٢

أدار ابنه الصغير وجهه بغضب.

- لا تريد أن تشترى لى. إذن عليك أن تتحمَّل المسؤولية كاملة.

ولأول مرّة يداهم رشيد النمر ذلك الإحساس المخيف بأن الولد لا يقول هذا الكلام جُزافاً.

- ماذا يعنى؟ سأل امرأته.

- يعنى ما يعنيه. أجابت.

- وما الذى يعنيه فيما يعنيه؟

- يعنى أنه يعنى كل كلمة قالها.

- وهل علىَّ أن أخاف؟

- ربما عليك أن تخاف.

- ولماذا؟

- لأن هذا أقل ما يمكن أن تحسَّ به حين يهددك الولد وهو يعنى ما يعنيه.

***

ثلاث مرات قال له ابنه الصغير: أريد همبورغر.

- هامبورغر؟ وماذا فيه هذا الهمبورغر غير الدّهون المميتة التى لا نعرفُ من أىّ حيوانات الله قد استُخرِجَتْ.

– لا تنس أن هناك عناصر غذائية أخرى. البطاطا، الخضار وما إلى ذلك. والجبن أيضاً. كيف نسيتُ الجبن؟!

– هذا لا يعنى شيئاً. إنهم يرشُّون على الموت سُكَّر.

– وماذا ترشّ عليه؟ عصافير؟!!

– أنا أرشُّ على الموت عصافير؟

– ومن لا يعرف ذلك. الجميع يعرفون هذا ويتحدّثون عنه.

– وماذا يرشّون على الموت، حضراتهم، الذين يقولون إننى أرشّ على الموت عصافير؟

– إنهم يرشون عليه عصافير أيضاً.

– ولماذا يتحدّثون عنى إذن؟

– لأنك مثلهم.

– وما الذى يعنيه هذا؟

– يعنى ما يعنيه تماماً.

– وماذا يعنى؟

– بإمكانك أن تسألهم فأنا خارج هذه القضيّة أصلاً.

***

عند منتصف الليل سمع طَرَقات قويّة على الباب

نهض

لوهْلَة اعتقد أنه يحلم. مسح جبهته فارتطمتْ أصابعه بورقة ما مُلْتصِقَة بها.

انتزع الورقة، أشعل الضوء الجانبى.. رأى ذلك الخبر الغريب:

منعته أمه من تناول الآيس كريم فاستنجد بالشرطة

سبير (المانيا) — أ ف ب: اتصل طفل في السابعة من عمره بشرطة سبير في غرب المانيا يستنجد بها ضد أمه التي انتزعت منه الكريمة المثلجة (الآيس كريم).

وقال مصدر في الشرطة أن الطفل أكد ...

كوَّرَ الخبر وألقى به بعيداً.

عاد للنوم.

لم يكن على يقين إن كان قد غفا أم لا، حين عادت الطَّرَقات تدوّي بشكل أكبر على الباب.

وقبل أن يعتدل فى السرير امتدّتْ يده إلى جبهته باحثة عن شىء ما قد يكون عُلِّقَ عليها ثانية.

ازدادت الطَّرَقَات قوة، انتصبَ فَزِعاً.

- لا أراك هكذا إلا حين يرنُّ الهاتف أو يطْرُقُ الشرطىّ بابك فى الليل.

قالت امرأته.

- ماذا؟

ولم تُجب. كانت نائمة.

سار عبر العتمة مترنّحاً.

- مَنْ هناك؟

- ومن يمكن أن يأتيكَ فى ساعة كهذه؟!!

- حضرة الشرطى؟

وهمس رشيد النمر لنفسه (كانت تعرف).

– حضرةُ الشرطى. نعم. حضرتى.

أشرعَ الباب.

– ألا يكفى تقصيركَ مع ولدِك الكبير لتجرَّ نفسكَ بنفسك إلى مشكلات أعوص وتفتح دفاترك القديمة من جديد.

– ماذا تعنى؟

– أعنى ما أعنيه تماماً.

– وما الذى تعنيه فيما تعنيه؟

– أنْ تحل المشكلة مع ولدك الصغير لتمرَّ الأمور على خير.

– أية مشكلة؟

– مشكلة الهمبورغر.

– وهل تُعْتَبَرُ هذه المشكلة مشكلة؟

– بالتأكيد. لقد أمضى الليل وهو يحاول الاتصال بحاملة الطائرات (كيتى هوك)؟

– ولماذا؟

– لأنه يريد أن يُقَدِّم شكوى ضدك.

– شكوى ضدى! ولماذا؟

– ألم تفهم بعد؟

– لا لم أفهم بعد.

– لأنك تمنعه من شراء الهمبورغر.

– لهذا وضع ذلك الخبر على جبهتى! كان يهددنى إذن!!

– تستحقّ ذلك لأنك تمنعه.

– وما المانع فى أن أمنعه؟

– المانع انكَ ستصحو ذات ليلة لتجد حاملة الطائرات (كيتى هوك) تحت شباكك تماماً.

– تحت شباكى هنا فى الشارع الـ Dead End ؟ وكيف يمكن لسفينة بحجمها أن تصل هنا.. إلى هذا الشارع أصلا؟

– ها أنت تواصل ثرثرتكَ التى بلا معنى.

– وما الذى تريد أن أقوله حين تقول لى إننى قد أصحو ذات ليل وأجد الـ (كيتى هوك) تحت شباكى؟

– يا حمار. الأمريكان وصلوا القمر، فهل تستكثر عليهم أن يصلوا بالـ (كيتى هوك) إلى تحت شباكك؟!

– لا أستغرب. ولكن.

– لا تستغرب، إذن اذهب إلى أقرب محل همبورغر الآن واشتر للولد ما يريد.

– فى هذه الساعة. وهل هناك محلات تبيع الهمبورغر الآن؟

– اطمئن. إنهم بانتظارك.

– بانتظارى؟

– نعم، فلديهم عِلْم كامل بالموضوع.

– ولكن كيف عرفوا بالموضوع؟

– لقد اتّصلت الـ (كيتى هوك) بنا، فاتّصلنا بهم بعد أن وعدناها بحل المشكلة، وعليك أن تحمد الله أنهم يُوكِلون إلينا مثل هذه المهمّات.

– ولماذا أحمده. أستغفر الله العظيم. على أمر كهذا؟

– عليك أن تحمده لأن بيننا وبينهم اتفاقية دفاع مشترك. هل فهمت؟

– لا.

– إذن اذهب من فورك الآن واشتر للولد ما يريد وإلاّ سأضطرّكَ مُرغماً أن تفهم. مفهوم؟

– مفهوم.

المفاجـــأة

نام طويلاً

وحينما استيقظ ذات صباح

لم يجد نفسه فى السرير

وجد رجلا آخر

ذهب إلى المرآة

كما يمكن أن يفعل أى رجُل عاقل يجد نفسه وجها لوجه

مع معضلة كهذه

تأمَّله طويلاً

لم يكن يعرفه أبداً.. لم يُذَكِّره بأحد

وهكذا اعتبر الأمر لا يعنيه

بعد قليل عاد به للسرير

هيأ له المخدّة

أفرحه أن زوجته لم تستيقظ

وفكَّر أن يترك لها هدية متوحشة تليق بها:

رصاصة فى جبين هذا الرجل الغريب النائم بجانبها

لكنه لم يفـعل، لأنه لم يكن يملكُ، ببســاطة، أىَّ أسلحـــة من ذوات الرصاص.

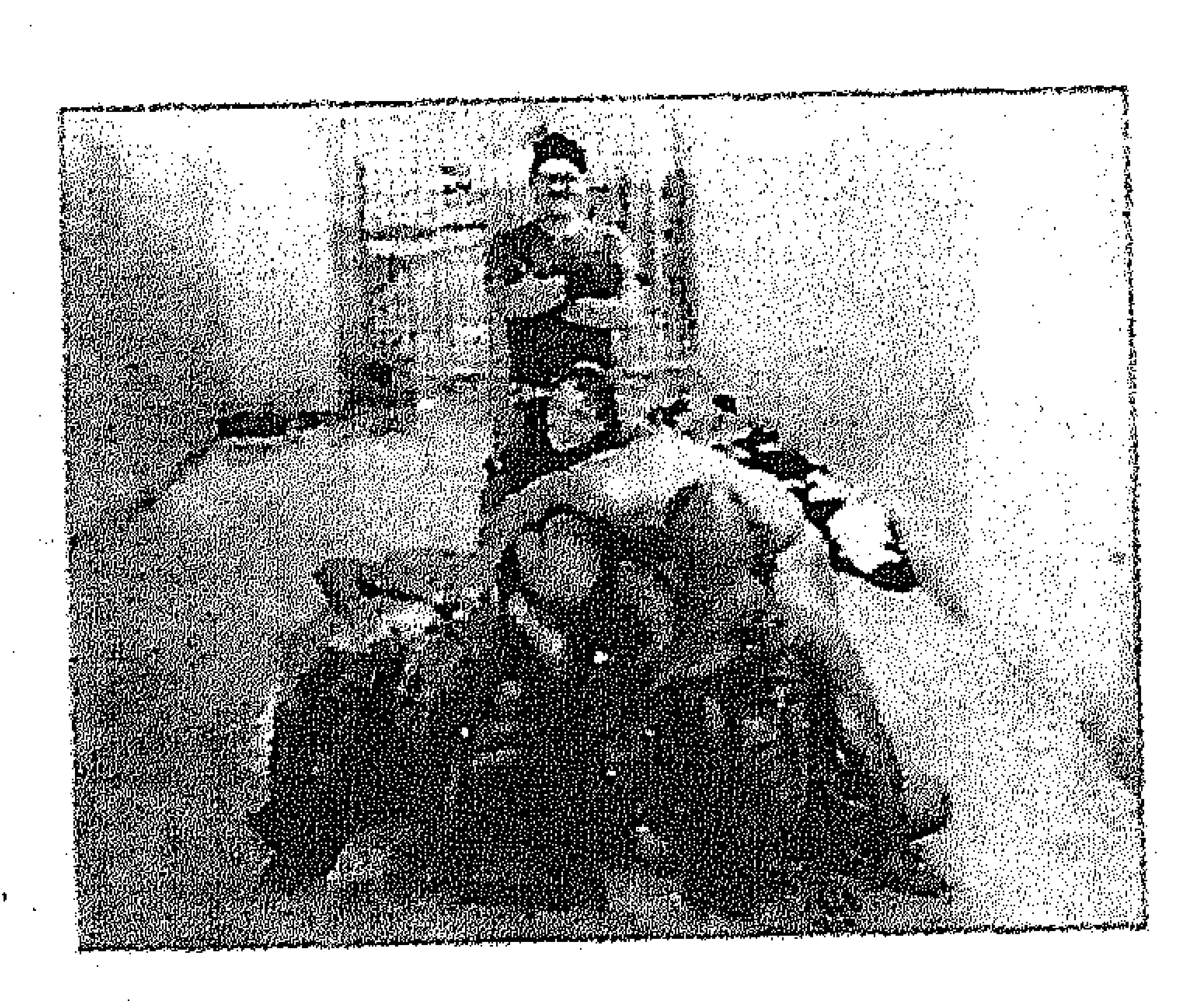
عاد خطوتين
تأمَّل الرجل النائم بجانبها
الرجل الذى لا يُذكّره حتى بشىء
وبصمتٍ مضى للمرآة
كان يمكن أن ينتهى الأمرُ عند هذا الحدّ
أعنى
ألا يعود للمرآة.

بهدوئه المعهود
هدوء القتيل الذى لم يعد يُفكّرُ بالحياة خائفاً من رصاصة أخرى تعبره
تأمَّل الرّجُل الذى فى المرآة
لم يعرفه... لم يُذَكِّره بأحد أو بشىء
لكنه بدا رجلاً مُستسلِماً لقدره كصحراء
ما الذى يمكن أن يفعله برجل آخر؟
رجل آخر لا يعرفه؟
عاد للسرير، أبعدَ الرجلَ الأول
وحينما تأكّد له أن السرير أكثر اتساعاً مما كان يتصوّر
وضعه بجانب الرجل الأول
وهكذا ظلَّ يفعل طوال اليوم
لكن الذى أرَّقَهُ آخر النهار
أن امرأته لم تفتح عينيها
هزّها قليلا
فتحتهما أخيراً بكسل

تلفَّتتْ حولها باحثة عن تلك اليد التى هزَّتْ نومها

لم تجدها

وحيّره أكثر أنها لم تره، أو أن بها كل هذه القدرة كامرأة تصحو فجأة، وتدّعى أنها لا ترى فى الغرفة أحداً سواها، وحتى أولئك الرجال الذين تكوّموا فوق بعضهم بعضاً وكانوا إلى حدّ بعيد يشبهون تلَّ الرجال فى سجن أبو غريب.



حدَّقتْ فى الساعة الإلكترونية التى تومض باحمرارها المعهود

وهمستْ: إنها السادسة!

قال لها: إنها السادسة مساء!

لكنها لم تُعِرْه انتباها..

امتدتْ يدها، سوَّت اللحاف

فتساقطَ أكثر من خمسة رجال على جانبى السرير

وعادت للنوم

***

تأمّل امرأته، لم تكن هى

بحث عن صديقه الذى يُتْقن التبرُّمَ جيداً،

وجده هناك، كالعادة، فى المكان الأثير إلى قلبه،

المكان الذى التقى فيه ذات يوم صديقته البيضاء ذات العينين الخضراوين،

المكان الذى لم يتنازلا عن اللقاء فيه لصالح أىّ مكان سواه.

(سنأتى على ذِكْرِ السبب لاحقاً)

وقبل أن يُنهيا الكأس الثانى اكتشف أن صاحبه مات، لكنه واصل الجلوس قبالته وهو يُحدِّثه فى مواضيع لم تكن تهمُّ أياً منهما.

كم أرَّقَه أن يكتشف النادلُ، فجأةً، أن صاحبه قد مات.

قال له: فى صحَّتك.

وفوجئ بيد صاحبه ترتفع وبشفتيه تنفرجان.

ها هى الابتسامة المثالية المُعلّقة بمسمارين بارزين.

– كأنه لم يَمُتْ بَعدُ. قال لنفسه.

وحمد الله كثيراً، لأن ذلك يعنى أن يراه مرة أخرى ، فى هذا المكان ويدَعَهُ يشكو كما يحلو له، بل وأكثر.

حين نهضا باحثين عن سيارة، كان صاحبه فَرِحاً تماماً، وعندها أيقن أنه قد مات فعلاً.

لم يجدْ صعوبة فى العثور على سيارة، رغم أنه لاحظ تردّد السائق قبل توقّفها بثوان؛ ولم يكن تردد رشيد النمر أقلّ، فقد كانت السيارة على شكل قفص كبير مُتقن الصُّنْع.

أشرع لصاحبه الباب الأمامى بنفسه، هذا أقلّ ما يمكن أن يفعله فى

مناسبة كهذه: (احترام الميت). لكن المفاجأة التى حدثتْ أن الكرسىّ لم يتّسع له، وعندها أغلق الباب بلطف (وهى واحدة من فضائله التى لا بدّ يذكرها كثير من سائقى سيارات التكسى والسرفيس، لندرتها).

أشرع الباب الخلفى حيث المقعد الواسع وأجْلَسه هناك.

حين انطلقت السيارة، كان أول ما قاله السائق: دُنْيا!! قريبك؟

– صديق عمرى.

– ستفتقده كثيراً، من الصعب أن يكون للمرء صديق عُمْر فى هذا الزمان.

هزَّ رشيد النمر رأسه بأسى وهبطتْ دمعتان كبيرتان على خديه فامتدتْ يده للكرسى الخلفى تُربِّتُ هناك على خشب النعش الذى احتلّ المقعد بأكمله!

وفى محاولة منه لإخفاء دموعه راح ينظر خارج السيارة القفص..

ولأول مرة يكتشف أن الدكتور كان على حق..

– كيف لم أسمع كلامه؟ وبَّخَ نفسه.

لم تكن هناك شرفة وقعتْ عيناه عليها إلاّ وكان فيها أكثر من قفص.

أقفاص لنباتات الزّينة الاستوائية الخضراء

أقفاص للزهور ذات العمر القصير

أقفاص للنعناع وللورد الجورى

أقفاص للقرنفل

وأقفاص كبيرة للياسمين تصل أسفل الجدران بنهاياتها.

وحينما انعطفت السيارة باتجاه الدوّار الكبير اتّسعتْ عيناه دَهَشاً أمام ذلك الإعلان العملاق الذى وُضِعَ فى مكان مدروس بعناية:

قفص كبير للغاية، وجبة طعام شهية فى داخله تحفُّ بجنباتها شرائح

البطاطا المقليّة وخُضْرَة الخسّ الأكثر يناعة من حديقة عامة وعبوة السلَّطة التى يسيل لها لعابُ حتى أولئك الذين انتهوا من تناول طعامهم للتّو.. وخارج القفص شاب يعمل بجنون للوصول لتلك الوجبة فى محاولة مستميتة لتمرير جسده من بين أسلاك القفص المعدنية السَّميكة وقد نبتتْ لحيته وتفصدَّ عرقه.

هزّ رشيد النمر رأسه وقد تذكَّرَ حكايته مع ولده الصغير.

***

قبل العاشرة بخمس دقائق سوَّى جلسته كى لا يفوته أىّ شىء من الفيلم.

وكالعادة، كان لا بدَّ له من مشاهدة موجز الأخبار مُرْغماً.

أطلَّتْ المذيعةُ بصورة جديدة تماماً:

ثيابها مخططة عمودياً وأفقياً.

الطاولة أمامها على شكل قفص.

جهاز الكمبيوتر الذى تقرأ منه الأخبار على شكل قفص.

وخلفيّة المشهد كلها كانت قفصاً

وعَبْرَ قضبانه كان يُشاهدُ العاملين فى الأستديو يتنقّلون داخل أقفاص خاصة.

للحظة فكّر أن فيلمَ الخيال العلمى هذا قد بدأ وأن نشرة الأخبار لا بد انتهتْ، لكن الأمر لم يكن كما تصوَّره أبداً..

بل كما رآه

.. ..

فى نهاية الفيلم، أُعيدَ الهارب للسّجن والمرأة ماتت بالسرطان.

أغلقَ التلفاز بهدوء. مضى للحمّام. غسل أسنانه، جيداً، كعادته، دون أن يستطيع منع نفسه من نسيان الوسائل الجديدة المبتكرة لاستخدامات الأقفاص.

وللحظة أحسّ أنه وصل لتلك الوجبة الشهية وأنه يبتسم.

- ولماذا لا تعترف بأنكَ مثلي؟

تلفّتَ حوله فَزِعاً، ورأى ابنه الصغير يغادر الحمّام.

بعد زمن طويل تذكّر سبب دخوله.

بعد زمن طويل نسي تماماً ما قاله ابنه.

غسل أسنانه بعناية

(مَنْ يعرف متى يحين الوقت الذى يحتاج فيه المرءُ لاستخدام ابتسامته)

لكنه كان حذراً تماماً من أن ينظر فى المرآة،

(ليس ثمة ضرورة لقول السبب)

عَبَرَ المر المعتم، تأمَّل امرأته.. تأكّد من أنها ميتة كصاحبه

وأطفاله.. تأكّد من أنهم ميتون أيضاً

- ما الذى كان ينتظرهم على أى حال؟ وصول أبناء الجنود الذين عمّروا أبو غريب بفحولتهم؟ أم أولئك الذى ظلّوا يطلقون النار على ذلك الفتى وأبيه تحت الجدار؟



فى أطول حفلة إعدام عرفها التاريخ.

بصعوبة استطاع انتزاعَ حصّته من اللحاف حيث كانت تشدُّ قبضتها عليه ككمّاشة. سمع تمزُّقَ قماشه المُوَرَّد. توقَّف خائفاً من أن تستيقظ.

(ذات يوم سيغدو اللحاف لحافين)

نام...

(أغنيـــة)

إنها لحياة خالية من الهموم تماماً

لا يعرفها إلا أولئك الذين يشبهونه تماماً:

أن ينتظروا مرّة فى الأسبوع مكالمة من صديق ميت

وأن يتحدثوا بجدِّيّة مع أنفسهم

حول فضائل امرأة لم تعد معنية بأن تظلَّ امرأة

وأن يُربى أولادَ رجل آخر.. يشبهون أبناءه.. وميتين.

سين مخفّفة

لم يكن صعباً على الشرطىّ أن يعرف بحدْسه أن هناك مَن يتعقّبه!

ولذلك بدأ العملَ بسرعة. أصبحتْ خطواتُه، فجأة، أطول، بحيث بدا كشرطى يركض محاولاً اللحاق بمجرم فارّ. وفى لحظة اختفى.

عمَّ الصّمتُ المكان، فتلاشتْ أصواتُ العربات وضجةُ الشارع وصرخات البشر الفَرحين بأقفاصهم الممتلئة بعصافير جديدة، وقد كانوا يعبرون عن جانبى رشيد النمر بهمّة قاصدين مراكز الأمن ودوريات الشرطة ومحلات بيع العصافير لتسليمها واستلام أثمانها.

لم يسبق أن كانت هناك تجارة سريعة رابحة مثل هذه، سوى تجارة أجهزة الستلايت بأطباقها اللاقطة ، التى غدتْ على شكل أقفاص صغيرة مبتكرة فعلاً، بعيداً عن شكلها القديم الذى لا يُذَكِّر سوى بأوانى الطعام العملاقة. وإذا ما أردْنا وصفها بدقّة أكثر فسنقول إنها تطوير فذٌّ لهوائيات التلفزيون، ولكن، بدل أن تكون القضبان مصفوفة بشكل أفقى تمّ تحويلها إلى مربع قفصىٍّ بستِّ جهات، رأى فيه رشيد النمر إشارة ذكية عادلة للجنوب والشمال والشرق والغرب والأعلى والأسفل ، وقد كان اللاقط مثبتاً فى وسط القفص على هيئة دائرة تُذكِّر بعصفور. ولكنْ، بدل أن تسمع الغناء فوق السّطح تسمعه تحته فى الغرف، كما تشتهى، غناء لا يتوقّف ليست بدايته (روتانا) ولا نهايته (مُوْلْدِىْ).

فجأة، ووجها لوجه وجد رشيد النمر نفسه مع ضباب يُغطى كل شىء. وفكَّر: هل يكون الشرطى أحسّ به ففجّر قنبلة دخان ليختفى؟ وقبل أن يجيب سمع صرخة الشّرطى ووجهه قربَ وجهه: ماذا تريد؟

– لا شىء. لا شىء أبداً. فكل ما أريد قوله إننى حاولتُ كثيراً. صدّقنى حاولت.

– حاولتَ ماذا؟ سأله الشرطى بنفاد صبر.

– حاولتُ أن أتفادى تربية عصفور فى الشرفة. لكن الأمر حدثَ رغما عنى.

– نحن نعيش مرحلة جديدة يمكننا فيها تفهُّم أمر كهذا!!

– لكننى فى المقابل شجعتُ الولد على الذهاب للصّيد، ويبدو أننى نجحتُ قليلاً، لكنه لم يتصرّف بصورة جيدة.

تحفّز الشرطى: ماذا تعنى بقولكَ (لم يتصرّف بصورة جيدة)؟

– إنه ولد برىء أكثر مما يجب. إذ يبدو لى أنه لم يعد يحقد على العصافير كما ينبغى، لا لشىء، إلا لأنه يريد كلباً.

– كلبا؟ سأل الشرطى مستغرباً.

– نعم، ولذلك لم يَعُد حتى الآن بعصفور واحد. بل قال لى أيضاً إن العصافير يمكن أن تجلب لنا الكثير من المشاكل.

– وما الذى كان يعنيه بكلامه هذا؟

– قال لى إن العصفور قد يُفسد علاقتنا بالجيران؟

– وكيف يمكن لعصفور أن يفسد علاقتكم بالجيران؟!

– أن يبدأ بتوجيه الشتائم لهم..

- وكيف يمكن لعصفور أن يشتم الجيران؟

- لقد قرأ في الجريدة عن رجل صينيّ درَّب طائره على شتْم جاره مما دفع الجار لِمُقاضاةِ صاحب الطائر؟

- وما نوع ذلك الطائر؟

- إنه من فصيلة (المينة)، نوع من الببغاوات ربما؟ وها هو الخبر معي. أنظر.

ناولني إياه.:

صيني يقاضي جاره لأنه درب طائره على شتمه

□ هونج كونج - (د ب أ)

ذكر تقرير إخباري أن صينيا رفع دعوى قضائية على جاره، متهما إياه بتدريب طائره من فصيلة المينة على شتمه.

وقالت صحيفة ساوث تشاينا مورننج بوست إن الجار المتضرر ويدعى لي دين قدم للمحكمة شريط تسجيل للطائر سليط اللسان يصيح فيه بكلمات "لي دين ابن زنا". مطالبا بأن يتقدم له صاحب الطائر باعتذار وأن يدفع له مبلغ ألفي يوان (٢٤٢ دولارا) على سبيل التعويض.

- لقد قلتُ دائما إن على الحكومة أن تَحْظر دخول الببغاوات إلى البلد؟ قال الشّرطي وقد سرَحَ بعيداً.

- لماذا؟

- ألم تفهم بعد؟ لأنها طويلة اللسان وقد يؤدى ذلك إلى أن تتطاول ألْسِنَةُ عصافيرنا علينا، فتصوّر أن تبدأ بسماع الإهانات توجّه إليك من فوق غصون الأشجار وسطوح البيوت والسماء دون أن تستطيع عمل أى شيء.

– إنها مشكلة فعلا، لكن الأمر فى اعتقادى أصبح أعقد من ذلك؟

– ما الذى تعنيه بكلامك هذا؟

– لا شىء.

– لقد بدّدتَ الكثير من وقتى دون فائدة. قال له الشرطى بغضب، ثم نظر إليه بتوجُّس وأضاف: أم أنك جئتَ لتعترف بطريقة غير مباشرة أنك تفكّر بتربية ببغاء؟

– هذا آخر ما يخطر ببالى. فقط، تربية عصفور لا أكثر، من تلك التى لا تُتقنُ سوى الغناء. هل تسمح لى بالعودة لموضوع الولد؟

– أى ولد منهما؟

– الولد الصغير.

– فى قضيته أنت المسؤول عن عدم قدرته على اصطياد العصافير. هل زوّدته بالوسائل المُثلى لذلك؟

– كل ما يلزمه.

– ولم ينجح!!

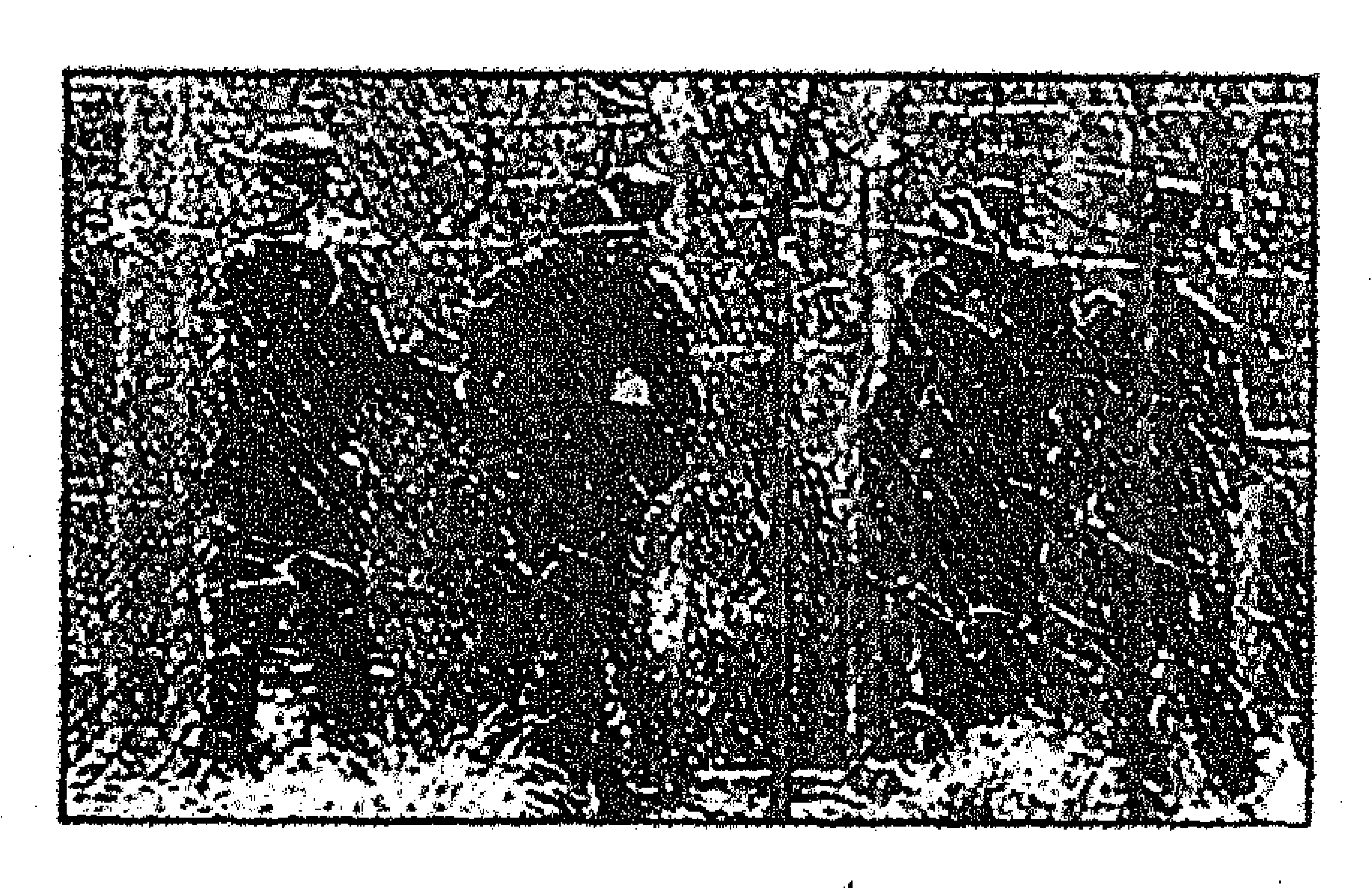
– لا، لم ينجح.

– ما الذى تريده إذن؟

– فقط، كنتُ أريد أن أقول لكَ ذلك حتى لا تلومنى مثلما حدث مع ابنى الكبير.

-إنه الآن فى غوانتنامو!

-هكذا قيل لنا. ولذلك أُمضى الكثير من الوقت فى محاولة أن ألمحه وسط واحد من تلك الأقفاص الكبيرة.



- على أى حال أريد أن أحذِّرك. مسألة الولد الكبير مرّت على خير، معنا على الأقل، بلا سين وبلا جيم. ليس تماما!! فالسِّين كانت مُخفّفة والجيم أيضاً ولذلك لم يُتْعِبوكَ بهما. وعليك أن تُبقى عينيكَ مفتوحتين على ولدك الصغير. وحتى وقوعه بين يدىَّ سأتصرف معه باعتباره طفلاً بريئاً، ولا شىء أكثر.

تركه الشرطى مكانه ومضى مبتعداً. لحقه رشيد النمر.

- وبعدين!! ماذا تريد؟ همهم الشرطى بغيظ.

- كنت أريد أن أقول إننى حاولتُ أن أقنعه، ببعض مساعدة منى، باصطياد شىء آخر علّىْ أفتح شهيته لصيد العصافير، فكّرتُ بأن أعلِّمه اصطياد سمكة، لكنك تعرف الصعوبة التى يواجهها إنسان يفكر باصطياد سمكة هنا، حيث لا أنهار تجرى قريبة ولا بحار يمكن الوصول إليها بسهولة. ولذلك اكتفينا فى النهاية باصطياد وتربية بضع دودات صغيرات، مثل تلك التى تعرفها، أقصد نعرفها جميعاً، أعنى دود الربيع. ولكنها ماتت. والولد قال: الحمد لله أنها ماتت. سألته: لماذا؟ فردَّ: لأنها لم تنبح؟ فقلتُ له: إذا ما أتيتُ لك بضفدع نقّاق، نبّاح، مثلكَ، أعنى مثله، فهل هذا يُرضيك؟

– وبماذا أجاب؟

– قـال لى.. إذا كنت لا تسـتطيع اصطيـاد سـمكة فكيف سـتصطاد ضفدعاً؟

وعمَّ الصمتُ من جديد.

– لم أعد أفهم شيئاً. ما الذى تريد قوله؟ وما المشكلة؟ صرخ الشرطى.

– المشكلة أننى أنـا الذى فكَّر فى العصفور والقفص وكل هذه المصائب. المشكلة أننى أنا الذى أرغمتُهم على القبول بفكرتى.

– نحن نتفهَّم ذلك، أب برىء ولا شىء أكثر.

– صحيح؟

– بالتأكيد.

باب الفضول

لأيام طويلة بلياليها، ظلّ يفكِّر في المسألة، في الجهات وعدسات الكاميرات ونباتات الشرفات وسطوح البيوت المنخفضة المزروعة بصحون الستلايت وهوائيات التلفزيون التى تشبه الأقفاص..

لا شيء.. لا شيء أبداً.

حاول أن يبوح لامرأته بما يحسّه، لكنه لم يكن قادراً على تفسير شيء.

حاول ثانية..

وقبل أن يفتح فمه جاءه صوتها من الطرف الآخر للسرير: أنتَ السَّبب!

– السبب في ماذا؟

– في كل شيء. لو أنك بقيتَ هناك فى (الخليج)، لكان وضْعُنا اليوم أحسن ألف مرة.

– وضْعُ مَن؟

– وضْعُنا.

– ولكن لا علاقة لكِ بمسألة عودتى، لأنكِ لم تكونى موجودة أصلا.

– هذا لا ينفى أن وضْعَنا كان يمكن أن يكون أفضل.

– احمدى الله أننى استطعتُ شراء هذه الشُّقة، وإلاّ لكنتِ تنامين الآن فى مكان لا يشبهها أبداً، واحمدى الله أننى عدتُ إلى هنا، فلو بقيتُ هناك لما عرفتكِ أصلا، وربما كان وضْعُ امرأة أخرى هو الأفضل، وليس وضْعك.

– ربما، ولكن كان سيكون وضْعُنا أفضل بالتأكيد. الآن، انظر إلى نفسك

تسير إلى جانب الجدران كما لو أنها ستسقط عليك، وتُغلق باب الشرفة وشبابيك المنزل كلما أردتَ أن تتنفّس!

وصمتتْ، ثم سألته: ما الذى كنتَ تريد أن تقوله؟

– كنت سأقول لو أننى بقيت فى الخليج لكان ذلك أفضل.

– إذن أنتَ توافقنى الرأى؟

– لا.

***

لم يُغمض عينيه. ولكن شعوراً غريباً باغته (أنه نام)..

نعم، نام بأعين مفتوحة، كما تنام الغزلان، وطالما وصفتْ أمُّه نومَه على هذا النحو، فقد كان غزالا فى عينها ولم يزل.

كان أول ما فعله حين وصل المركز أن جرَّ الطاولة إلى منتصف الساحة، أخرج البوصلة من جيبه، وضعها فوقها، تأكد تماماً من أمر إبرتها، مع أنه لم يعد بحاجة لأن يتأكد، فحين يصل باب المركز صباحاً، تكون الشمسُ على يمينه تماماً، وعندما يغادره تكون على يمينه أيضاً، أما الجنوب فيكون خلْفه صباحاً وأمامه مساء!

أدار الطاولة إلى الغرب، وتأكّد من أن النقطة الحمراء تشير إلى ذلك الاتجاه الغامض.

أحضر كرسياً.

مضى نحو الباب الخارجى. تأكَّد من أنه مقفل بإحكام.

وقف خلفه قليلاً ليتمكَّن من سماع أىّ حركة أو كلمة مشبوهة.

لم يكن هناك ما يشير إلى شىء غير معتاد.

دار حول نفسه حتى تأكّد من أن السّطوح المجاورة خالية من البشر.

(كانت خالية)

تقدَّم نحو الكرسى بهدوء، وصعده كمن يحاول تسلُّقَ سور عال بغرض السَّرقة.

انتصبَ فوقه.

تلفَّتَ حوله.

لا شيء

رفع قدمه اليمنى، وضعها فوق الطاولة، وفى حركة سريعة وجِلَةٍ، تعاونت قدماه معاً على رفعه إلى سطح الطاولة.

كان خائفاً إلى ذلك الحد الذى لم يستطع معه أن يرفع رأسه فجأة، بقى منحنياً للحظات مثل جندىّ فى خندق، مثل جندى يتعرَّض موقعه لزخَّات مجنونة من رصاص ثقيل.

أخيراً، جمع نفْسَه وانتصب واقفاً على طول امتداد قامته.

كان، بالتأكيد، أطولَ بكثير من تلك الصحفيّة، ولعل ذلك وحده ما جعله أكثر ثقة فى أنه سيرى أكثر منها ومن عين كاميرتها البارزة على ذلك النحو الذى ذكَّره بعيون توم آند جيرى.

بدأ بالشّرق، لم ير شيئاً، استدار للجنوب، لم ير شيئاً، ثم عاد واستدار للشرق قبل أن يستدير للشمال، مُحاذراً، بالطبع، أن ينظر إلى الغرب بصورة مفاجئة.

لم يرَ شيئاً

ظلت عيناه تحدِّقان فى الشّمال طويلا وهو يفكّر فى ذلك الذى يفعله، ومدى خطورته، وهل يحقُّ له ما يحقُّ للصحفيين أم لا؟ وهل كان على الرجل العجوز أن ينبهه إلى أن هناك صحفيين أجانب، وهؤلاء أطولُ قامةً منّا فى حالات كثيرة؟ وهل عليه أن يأتى لهم بطاولة حين يأتون أم يَدَعَهُم يعتمدون على قاماتهم وحدها؟!

أربَكه الأمر..

وبسرعة من يريد اقتلاع أحد أسنانه بنفسه مُستخدماً يد الباب أو حجراً كبيراً التفتَ بسرعة إلى الغرب..

ذكـــريات ١

(ليــل.. خارجى)

ذات يوم سأله صاحبه الميت

– ما الذى تتمناه أكثر من وجود عينين لك؟

فقال: جفونا.

– وما حاجتك لهما؟

– لكى لا يُرى قعْرُ روحى.

سأله: وما الذى تتمناه غير وجود الجفنين؟

– نوماً هنيئاً بداخلهما

– وما الذى تريده بعد النوم؟

– أحلاماً غير شريرة لا تذكِّرنى بالنهار.

– وما الذى تريده أكثر من قدمين يمكن أن تحملاك بعيداً؟

– أتمنى وجود الطريق.

– وما الذى تتمنّاه من وجود الطريق؟

– أن أذهب إلى آخره ثم ألتفتَ خلفى وأرى الأشياء بعيدة.

– وما الذى تريده من البُعد؟

– من البُعد. أريد أن أتأمَّل نفسى فى مرآة لا تعكس صورتى.

– أوليسَ هذا صعباً؟

– وما وجه الصعوبة فى ذلك؟

– هذا يعنى أنك ستكون حيث كنتَ، بلا جفنين، وبأحلام تُذكِّرُكَ بالنهار، وبلا طريق، وفوق ذلك كله، وحيداً، مع هذه المرآة العمياء.

وسأله صديقه الميت: ولماذا تصاحبنى؟

– لأننى لا أستطيع أن أرى نفسى فيك.

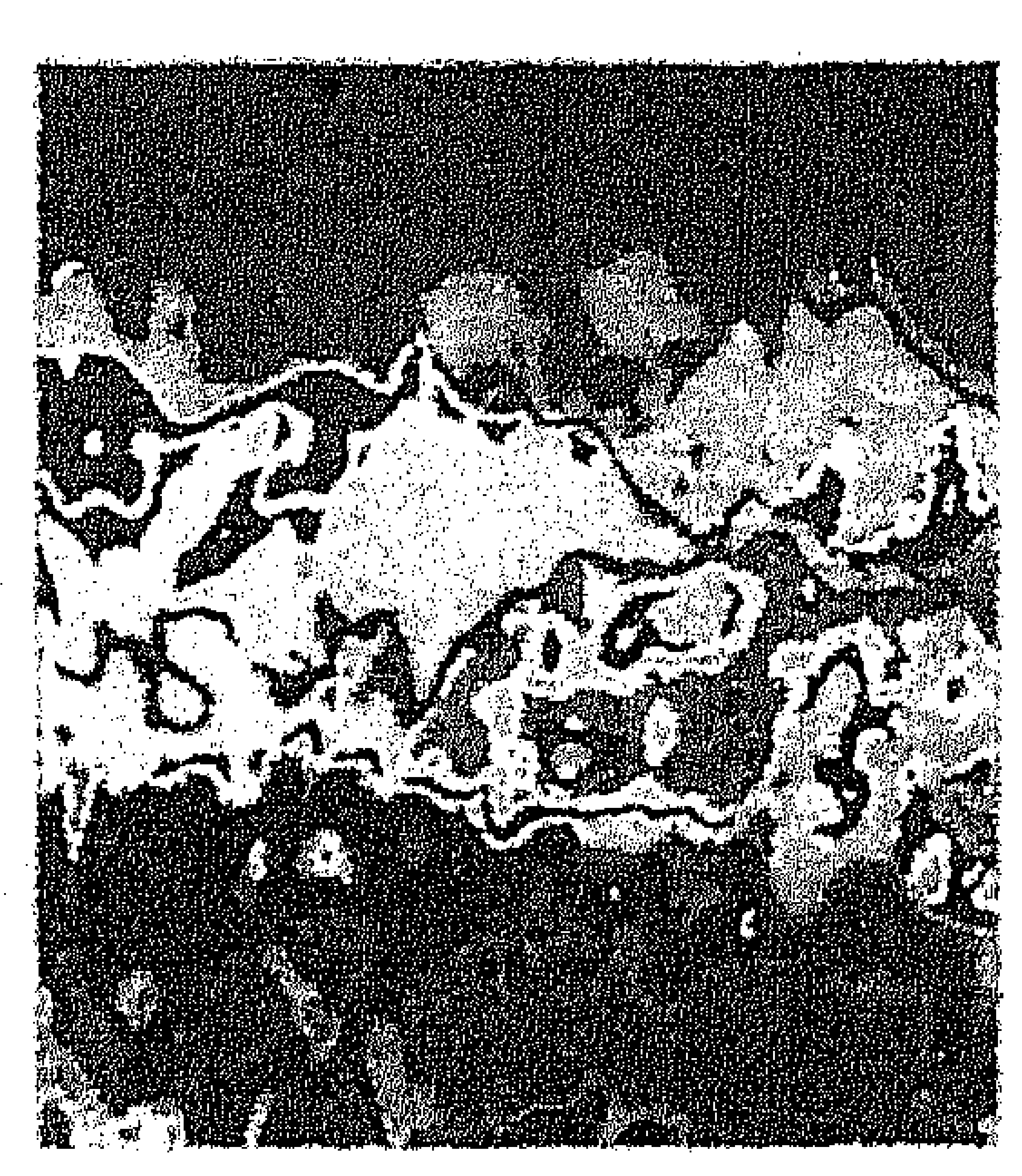
– ولماذا لا ترى نفسك فىّ؟

– لأنك بلا عينين. فهمتَ قصدى، أليس كذلك؟

– ولكنّ لى جفنين، عكسكَ.

– وما الذى يمكن أن يفعله المرء بجفنين بلا عينين؟

– يفتح بهما فوهة البئر الذى فى جمجمته.. بئر الأحلام.



– وما الذى يمكن أن يفعله المرء ببئر أحلام وقد وُلدتَ أعمى؟

– يستطيع البحث عن صديق يملك عينين.

– وما الذى يمكن أن يفعله بعينى صديقه؟

– أن يقتلعهما، ليُصبحا صديقين أكثر.

– هذه الفكرة لم تخطر لى من قبل.

– لكنك تحسّها جيداً؟

– وما أدراك؟

– لأنكَ اخترتنى من دون خلق الله واخترتك.

... ...

– هل هذه قامتُك التى أتوكأ عليها؟

– أظن!

– وهل هذه قامتك؟

– أظن!

– نحن غير متأكدين من وجود قامتينا إذن؟

– ولماذا نتأكد؟!!

– وغير متأكدين من وجود أعيننا.

– ألم تقل لى بأن لك عينين؟ ولا ينقصهما سوى جفنين؟

– قلت لكَ ذلك، ولكننى لم أعد متأكداً من وجودهما بعدما رأيتُ العصفور يكبر بسرعة على ذلك النحو، ورأيت ما رأيت حين صعدتُ الطاولة.

– إذا أردت أن نبقى أصدقاء فدع أمرَ الطاولة جانباً، أمّا العصفور فلا أحبُّ سماع أيِّ شيء عن كل ما له ريش، حتى الدّجاج؟

– لا تخدعنى. أعرف أن لديكَ دجاجة بيضاء.

– لا. لم يكن لدىَّ دجاجة بيضاء فى أىّ يوم.

– بل لديك. وأنا رأيتُها بأمّ عينى.

– لن أعترف لك بهذا، حتى لو رأيتها بعينيك. لن أعترف إلاّ إذا رأيتُها أنا بنفسى.

– ولكنّك أعمى.

– ولهذا، ليس باستطاعتك أن تُثبتَ أن لدىَّ دجاجة بيضاء.

– لأننى لا أملك جفنين؟

– بل لأننى أعمى.

– ولماذا لا تعترف؟

– لماذا؟!! لأنك شخص لا يمكن الاطمئنان إليه فى أمر كهذا؟

– وإذا ما أثبتُّ لكَ أن لديك دجاجة؟

– حتى لو استطعت أن تُثبتَ أن لدى دجاجة فلن تتمكّن من إثبات أنها بيضاء.

– اختلافُنا على اللون إذن؟

– لا. بل على وجود دجاجة بيضاء. ولذلك أرجوك أن تقفل هذا الباب تماماً.

– ولماذا؟

– لأنك ستعيدنا من جديد لسيرة العصفور.

– أنت الذى تصرُّ على أن تُذكِّرنى به.

– لا، بل أنت الذى تصرّ على أن ترويها، حتى تذكّرنى بأن لك عينين، وها أنت الآن تحاول جرّى للحديث فى المسألة الأكثر خطورة: الطاولة.

ذكـــريات ٢

ذاتَ يوم كان رشيد النمر هنا..

قبل سنين طويلة..

فى المكان نفسه، شاباً مثل عصفور يتقافـز برشـاقة فـى قفص، لقد كان لها الفضل الأول والأخير فى أن يكون هنا، وحين رحلتْ بقى المكان له.

كـانت جـميلة تمامـاً. بيضـاء كمـا يشتـهيـهـا فـلاح أسـمـر وذات عـينين خضراوين، جعلت أصدقاءه فى الدّراسة يفكّرون جديّاً بالتـخلّص منه، لكنهم لم يجرؤوا؛ أما الذى استطاع تجاوز هذا الخوف فكان، كالعادة، رجل أَمْنٍ يحلم بالزواج بفتاة مثلها. فاجأه فى السّهل الأخضر ذات ربيع خلف مبانى المعهد وصوَّبَ مسدسَه إلى رأسه.

الحقيقة أنه لم يَخَفْ، أو لعلّه لم يستوعب ما يدور، فلم يخف، أمّا صديقته فقد بكتْ كثيراً، ثم انسحبتْ، كما لو أنها قررتْ فى النهاية ألاّ تكون شاهدة على جريمة بهذا المستوى.

لكن رجل الأمن لم يُطلق عليـه النار (كمـا هو واضح) وإلاّ لما كـان وصل إلى زمن يكون لديه فيـه زوجـة ميتـة فى السـرير وأولاد يحلمـون بكلب بدل عصفور عجيب فى قفص ووظيفة مُرْبِكَة.

كان أول ما فعلتْهُ ذلك اليوم تفقُّدَ رأسِه ما إن رأته مُقبلاً.

بلهفة راحتْ عيناها تبحثان عن خيط دم، لم تجد. دارتْ حوله دورتين. لم يكن ثمة شىء فيه يمكن القول بأنه تغيّر.

وفجأة مدّتْ يدها إلى رأسه، فى حركة جريئة، تبحث عن ثُقْب.

لم تجد أيضاً

عندما اطمأنت، ابتعدت ثلاث خطوات وقد تذكَّرتْ مسافة الأمان التى لا بدّ منها لئلا تثير الشُّبهات.

بعد أيام استوعبَ ما حدث، فأحسَّ بأنها بيضاء أكثر مما يجب، وعينيها أكثر خضرة مما يجب، وأنها ممتلئة أكثر مما يجب، لكن ذلك لم يمنع صاحبه الوحيد من الوقوع فى حبّها.

لكنَّ صاحبه كان مؤدبا دائما بحيث لم يضطرّها أن تقول لرشيد ما قالته هيفاء وهبى بعد ذلك بثلاثين عاما تقريبا، مخاطبة حبيبها (رجب) فى تلك الأغنية الشهيرة.

***

قالت له: سأراك الخميس.

ارتبكَ. كانت المرّة الأولى التى يراها فيها بعيداً عن أسوار المعهد.

وحين قال لها مرتبكا أين: قالت له فى (الدبلومات).

كان على وشك أن يسألها: مَن مات؟!

لكنها رأت حَيْرَتَهُ فأوضحتْ: إنه شبه مقهى. وحدّدتْ له موقعه.

لا يذكر رشيد النّمر الآن إن كانت انتظرته خارج المكان المحدّد أم داخله، فقد وصل إلى هناك مضطرباً تماماً، لا يعرف إن كان ما فى جيبه يكفى لدعوتها لتناول كوب عصير أم لا.

(دائما كان متعاطفاً مع أولئك الرجال البؤساء الذين تُطوِّح بهم الأذرعُ الغليظة لحراس المطاعم والبارات، فى الهواء، قبل أن يسمع جمهور السينما تهشُّمَ عظامهم على الرصيف)

كان يتفلّتُ داخل القفص، كما يتفلّتُ عصفورٌ فَقَدَ أعصابه.

وحين خرجا معاً بسلام

سألته: هل تحسُّ بدوار ما؟

- لا.

- بفرحٍ غير عادى؟

- لا.

- بخطاك، التى قد تكون، أصبحتْ ثقيلةً بعض الشىء؟!!

- لا.

- بشىء من النّعاس؟

التفتَ نحوها قاطعاً سيل أسئلتها الغريبة بشجاعة رجل لامستْ فوهةُ مسدّس فرْوَةَ رأسه من أجلها: كيف ونحن فى عزّ الظهر!!

***

فى قاعة سينما (الرينبو) مالتْ إليه أكثر من مرّة وافتعلتْ ملامسات شبه بريئة بين فخذيهما المتقاربين. لكن عينيه كانتا تدوران فى الظلام باحثتين عن عامل السينما الذى لا يُفارق)الكشّاف) يده.

وحسناً أنه لم يفعل شيئاً.

كيف يمكن أن يفعل شيئاً وهو يحسّ بنفسه محاصراً بالظلام من جميع الجهات، لولا وجه صاحبته الأبيض الذى كان، لا بدَّ، مَصدراً من مصادر الإضاءة فى تلك العتمة.

وفكَّر: لو أنها سمراء، لكان الأمرُ أسهل!!

لم يفاجئه عامل السينما بعين الكشاف، ربما لأن الحائط كان خلْفَهما والسينما أمامهما.

حاولتْ مرة أخرى. لكنها يئستْ. وعندها قالت تلك الجملة الغريبة: إذا لم يحركك (الجنّ) فكيف يمكن أن يحركك الإنس.

فبدتْ له غامضةً على نحو غير مُستَحَبٍّ..

حين رأته بعد ذلك، اعترفتْ له بأنها طلبتْ من النادل أن يضع له شيئاً من (الجنِّ) في الكأس لعله يتلحلح قليلا..

لكن (الجن) لم يفعل فِعْلَه، ليفعل هو فِعله أو بعض فِعله.

وبعد عقدين من الزمان اتصلتْ وقالت له: إنها لم تزل تحلم به، لكنها سعيدة مع زوجها رغم أنهما لم يُرزقا أولاداً.

سألها: من أين تتصلين؟

فأجابت: من مصلحتكَ ألاّ تعرف!!

وبعد مكالمة مطوّلة، أكدتْ له - حين أبدى بعض مخاوفه، وقد تذكّر المسدّس وفوهته- أن الأمور مسيطر عليها، لأن زوجها نائم.

كان يريد أن يسألها: ومن تزوجتِ أخيراً؟ لكن فطنته أسعفته فسألها: وهل ما زال يحتفظ بالمسدس؟!!

فردّتْ: أوه، لا تذكّرني، هنا السلاح يباع كالخِيار عندكم، إنني أحدِّثكَ وحولي خمس قِطَعٍ على الأقل.

صمتٌ

وفي غفلة منه فاجأته بتلك العبارة الصاعقة: أتعرف لقد فعلنا كلَّ شيء مهمّ!! لكننا لم نفعل الشيء الأهمّ الذي يمكن أن نفعله الآن، أقصد في أقرب فرصة.

– وما هو؟ سألها وهو غير قادر على تذكّر أيّ شيء.

– ممارسة حبنا!!

صمتَ كثيراً، إلى أن تنبّه أنها راحت تردد اسمه بفزع، مرة مرتين، عشرات المرات، وقد داهمها شعور بأنه أصيب بنوبة قلبية. وفى النهاية جاءها صوت غريب، لم يكن صوته ويشبه صوته

– الآن؟! و (لكنّه) مات!

– أكيد مات.. أكيد.. الحق عليك. لطالما حاولتُ. لقد بذلتُ كل ما لدى من جهد، بل واستعنتُ بالجن أيضاً دون فائدة. أتذكُر؟!! كان عليك أن تعترف لى بأنه ميت منذ تلك الأيام. كان عليك أن تعترف.

ودوّى صوت ارتطام السمّاعة بشيء ما يشبه الحائط. وسَمَعَ قرقعة سلاح وصوتَ رجلٍ على الطرف الآخر يصيح: مَنْ هناك؟!!

صاحبه نفسه فكّر بقتْله.

وليس يدرى، حتى الآن، إن كان نَدِمَ على عدم تنفيذ ذلك أم لا. فالأمر شائك جداً، حين يتعلّق بالقتل، كما قال له ذات حوار ساخن بينهما.

وإذا ما أردنا الذهابَ إلى أعماق صاحبه أكثر فإننا سنكتشف أنه فكَّر بمسألة القتْل هذه مرتين.

فحين وقعتْ الفتاة البيضاء ذات العينين الخضراوين فى حبٍّ رشيد النمر ووقع في حبها، ذهب رشيد من فوره لصاحبه ، وضع رأسه على كتفه ودون أن يقول أىّ كلمة أدركَ صاحبه أن الأمر خطير: أعرف.. لقد وقعتَ فى الحبّ!

– أجل! وكيف عرفت؟

– لا يحتاج الأمر إلى ذكاء، ألم تقل لكَ أمُّكَ ذات يوم بأن الحبَّ والحبَل لا يمكن إخفاؤهما؟

– قالت.

– ولكنك نسيت!! قال له صاحبه ذلك وكأنه يوبِّخه. ثم سأله: ومَنْ هى؟

– لن أقول لك مَنْ هى الآن.. سأدعكَ تراها!

وحينما رآها صاحبه لم يُصَدِّق. إنها فتاة بيضاء وذات عينين خضراوين وممتلئة على نحو مثالى.

بعد أن قدّمه إليها مباشرة، وأتيح له أن يسمع صوتها، خطرتْ له تلك الفكرةُ المجنونة (أن يقتله الآن، وفوراً، قبل أن تتولّه هذه الفتاة النادرة فى حبّه وتتعلق به أكثر)

لكن دخول مجموعة كبيرة من زملاء الدراسة على الخط، أفسد الخطّة، إذ بات رشيد النمر مُحاطاً بلفيف من الأصدقاء المفاجئين الذين راحوا يتقرّبون إليه أكثر فأكثر، وكلّ منهم يحلم بأن يُقدِّمه للفتاه الجميلة البيضاء.

من الصعب تنفيذ خطة قَتْل فى ظلّ وجود هذه)الحراسات) كلّها.

هكذا كان صاحبه يسمّيها.

وما لبثت الحراسات أن عُزِّزتْ بعدد لا بأس به من عيون الصبايا الزميلات اللواتى اكتشفن فجأة وجود رشيد النمر ما إن وقعتْ الفتاة البيضاء فى حبّه، وقد خطر لأكثر من واحدة منهنّ فكرة قَتْل هذه البيضاء التى سرقتْ أجمل الشباب!

قال له صاحبه ذات يوم: أترى الصبايا وقد وقعنَ كلهنَّ فى حبكَ فجأة.

:أين كنَّ من قبل، حين كنت بحاجة لأقلّهُنَّ جمالا؟!!

ولم يكن صاحبه يريد من كلامه سوى شىء واحد بالطبع (أن يُوقِعَهُ فى حبِّ هذا السّرب الخفّاق من الفتيات بحيث ينسى تلك الفتاة البيضاء).

لقد أدهشه دائما أن علاقته بزملائه استمرّتْ حتى بعد التخرّج، بل ودخل إليها أصدقاءُ أصدقائه.

(ارتبكتْ العلاقة قليلاً بتناثر بعضهم، بعد حادثة رجل الأمن والمسدس)

لكنه عندما عاد من سفره لم يجد أحداً منهم فى استقباله.

(لقد عرفوا بأمر زواجها قبل أن يعلم هو).

***

أما المفاجأة الكبيرة بالنسبة إليه فهى أن صاحبه لم يتخلَّ عنه، وحينما تزوّج قويتْ علاقته به أكثر، وشجَّعه على الزواج بأن أهداه غسالة كهربائية فاخرة، حالِماً بأن يُلاحظ الفرق الهائل بين غسيل أمّه التى تستخدم يديها وغسيل زوجته ناصع البياض الذى لا يفوقه غسيل.

أما الذى لم يكن يعرفه، فهو أن صاحبه كان ينتظر عودة الفتاة البيضاء لحبيبها القديم فى أىّ لحظة ليمدَّ لها يد العون، حين تكتشف أن حبيبَها خانها وتزوج، فيتزوجها هو، وسترضى، لأنها ستجدُ فيه دائماً بعض رائحة تذكِّرها برشيد.

.. بمجرد أن علِمَ صاحبه أن الفتاة البيضاء عادت تتصل، بدأت أمارات الحياة تعود إلى ملامحه. بل بدا فى لحظات كثيرة أنه لم يسبق له أن فارق الحياة!!

أنه لم يمت.

... ...

وعندما علِمَ بأنه رفض عرْضَها بالقدوم إلى هنا، فى محاولة أخيرة منها لملء بعض (فراغات) حبهما القديم، عادتْ له الفكرة القديمة من جديد (أن يقتله).

لكنه اعترف أخيراً بأن الوضع أصعب مما يتصور.

وإذا كان عاقلاً وعملياً، فإن عليه ألاّ يخسر كلَّ شىء دفعة واحدة، بمعنى (أن يُبْقى على حياة صديقه، وليس له أحد غيره، إلى أن تعود الفتاة البيضاء، وبمجرد أن يعرف بأن قدَمَها وطأتْ أرض المطار، سيتسلل إليه... ويقتله).

(عتمة لا يبدد الضوء الجانبي إلاّ قليلها)

– ألم تقل لي إنكَ تريد صعود الطاولة. سألتْهُ بعد ذلك بأيام.

– نعم. قلتُ لكِ؟

– وهل صعدْتَها؟

– لا.

وأحسّ للمرة الأولى بوخز في ضميره، بعد أن تأكّد له أنها مهتمّةٌ بما يقوله لها، وفكَّر: كان قتْلُها خطأ ما كان عليَّ الوقوع فيه.

بعد يومين من عذاب حقيقي لا يرحم، همس لنفسه، ولكن هل يكون موتها السبب في أنها بدأتْ تهتم؟!

استعاد لحظات كثيرة من حياته، حين كانا على قيد الحياة فلم يتذكَّر واقعة واحدة تشير إلى أنها كانت مَعنيَّةً بما يدور فيه.

رفع طرف لحافه ودعاها لأن تنضمَّ إليه (لم يفعل ذلك منذ زمن طويل). استدارتْ نحوه (لم يسبق لها أيضاً أن فعلتْ ذلك منذ زمن طويل) وهمستْ بعينين مغمضتين: دعني أستمتع هنا في مكاني بهذا الكسل الجميل!!

أنزل طرفَ لحافه، لعن طيبته، وقررَ ألا يدْعوها ثانية ما داما تحت سقف واحد!

.. بعد مرور ساعات لا غير، أصبح على يقين من أنَّ إقدامه على قتْلِها كان أفضل هدية قدَّمها لنفسه، ولها ربما، ما دامتْ مستمتعة إلى هذا الحد.

حين تأكّد له أنها نامت.. نام..

بعد قليل وصلتْ صاحبتُه، جميلة إلى حد لا يُحْتَمَل، كما رآها في ذلك اليوم الربيعيّ أول مرّة، أبعدتْ طرف اللحاف واندسَّتْ إلى جانبه، وهكذا غدا في المنتصف. زوجته على يمينه وصاحبته على شماله. خاف، بحيث أوشك أن يفتح عينيه ليتأكد من أن زوجته لم تزل ميتة، لكنه لم يفعل، وسيُقَدِّرُ دائما لنفسه هذه الشجاعة، سيُقَدِّرُ لنفسه أنه لم يَحْرِمْ نفسَه أجملَ ليلة في العمر.

لم يحدث الكثير، ربما لأن الخوف ظلَّ مُخَيِّماً على السرير، كانت الملامسات الحارّة جداً تبعث في روحه سعادة لا يمكن وصْفها، لكنه لم يتوغل أكثر مما يجب، بحيث يعملُ على سَدٍّ كل تلك الفراغات التي بقيت ندوباً سوداء في حكاية حبّه الوحيدة الكبيرة.

بين حين وآخر كان يتركُ لصاحبته ظهره، لا لشيء، إلاّ ليطمئنَّ أكثر من أن زوجته لم تزل نائمة تماماً ككلِّ الميتين، لكنه وهو يفعل ذلك، لم يكن يفتح عينيه. كان يراها بعين ثالثة لم يعرف من قبل أنه يملكُ واحدةً مثلها.

ولم تكن صاحبته تُضَيِّعُ الوقت، كان ظهره يعني الكثير لها، وكذلك لرشيد النمر الذي وجد في ظهره مساحةً عظيمة مُهْمَلَةً كانت بحاجة إلى مُكْتَشِفَة عظيمة قادرة على منْحه كلَّ هذا الحب.

كسلاً وتوتّراً، عسلاً ومِلْحاً كانت أطرافه تفيض في آن، وحين استدار وجدها طيبة كليلة مقمرة، أخذتْ نَفَسَاً عميقاً كان أشبه بتنهيدة امتلاءٍ وراحتْ تتكوَّم ما بين رقبته وركبتيه، لكنها لم تكن تهدأ، كانت تتموَّج بهدوء غير عادي، تتموّج كلّها بحيث لا تنسى المرورَ بشغفٍ فوق وعبر كلِّ خلية من خلاياه وتصعد بصمتٍ مجنون إلى ذُرْوة روحه.

أمّا رشيد النمر، فلم يكن قادراً على نسيان العينين المغمضتين خلفه، كان حَذِراً بحيث لا يَصْدُرُ عنه أيّ صوتٍ يُعيد زوجته للحياة فجأة، ولكنه كان مُسْتَسْلِمَاً في أعماقه لضرورات الفضيحة إن حصلتْ، مثل كل الرجال الذين لا يستطيعون خيانة زوجاتهم إلا في الحلم وعلى بُعْدِ ذراع منهنّ، وهكذا ظلَّ يتقلَّب في عذابه العَذْبُ.

نام..

كان ريش العصفور في المخدّة أكثر نعومة

وفي اللحاف والفرْشة أكثر دفئاً.

نام بذلك الهدوء الغريب الذي لم يسبق له أن أحسَّ به منذ ذلك الفجر الذي قطعَ فيه رأس العصفور.. والصباح الذي التهمَهُ فيه الصقر.

نام نوم قتيل،

سعيداً، بحيث يمكن أن يتواطأ مع امرأته لتقتُلَه مرة أخرى أثناء نومه دون أن يحسّ بأي ضغينة تجاهها.

***

بمجرد أن أشرقتْ الشمسُ استيقظ مذعوراً.

امتدت يده اليسرى مذعورة تتلمس السرير.

لم تكن صاحبته هناك.

أخذ نَفَساً عميقاً ويشبه الحسرة في آن.

راح يتفقّدُ نفْسَه..

ما يمكن أن تتركه امرأة جميلة فوق المخدّة من سحر أو بضع شعرات للذّكرى.

كان وحده

امرأته إلى جانبه مندفعة في وصْلَةَ شخيرها الصباحية بهمة ونشاط والشمس قد أشرقت تماماً.

تطايرتْ أفراحُه.

تذكّر أن أمامه الكثير من الأمور التي عليه أن يفعلها. ولم يكن هنالك ما يفوقها أهمية أكثر من اعتلائه السطح.

لكنَّ ما كان يحيّره أن أمراً كهذا لن يبقّى سراً

فهنا مخفر الشرطة، ومركز الدفاع المدني، وهناك، أبعد، تلكَ الشقق الفارغة المعروضة للإيجار منذ سنوات دون جدوى

وفكَّر بستائرها المسْدَلة دائماً وبنوافذها العمياء التي لا يُطلُّ منها أحد.

حين وصل حافة السّطح سمع تلك الدّقات القويّة على باب المركز.

بسرعة هبط فزعاً، جرَّ الطاولة للداخل، الكرسيَّ، وهرع للباب الخارجي.

أشرعه، وهناك، وجد نفسه مع أحد المصوّرين الصحفيين وجهاً لوجه.

نظر إلى الكاميرا التي في يده فأدرك أنه لم ير مثلها من قبل: طويلة ولها أكثر من عدسة وتشبه أقفاص الصيادين.

كان المصورِّ بطولِهِ تقريباً.

ألقى السّلام بأدب جم (أسعده هذا) ثم طلب منه أن يلتقط بعض الصورّ للمنطقة.

رحَّبَ به، دعاه للدخول، ولم يكن في أي يوم من الأيام أكثر اطمئناناً.

(لقد فَعَلَ فيه الأدبُ ما لم يفْعله فيه الجمال)

مضى بمفرده نحو الغرفة جرَّ الطاولة إلى منتصف الساحة، وضع البوصلة، حدَّدَ موقع الضلّع الذي تتوسّطه الدائرة الحمراء.

سأله المصور: ماذا تفعل؟

- أقوم بما عليّ، لتقوم بما عليكَ على أفضل وجه.
- ماذا تعني؟
- أُسهِّل مهمَّتكَ. ولكن قل لي: هل تُقَدَّمُ لكم الطاولات في كل مكان تذهبون للتصوير فيه؟
- لا.
- نحن في خدمتك!

صعد المصوِّر إلى سطح الطاولة، نزع غطاء العدسة الطويلة، (مُبْقياً على أغطية بقية العدسات) نظر إليها، كانت لامعة نظيفة. صوّبها للشرق، التقطَ مجموعة من الصّور، للشمال، للجنوب، وحين استدار للغرب جاءته إشارة التحذير واضحة: هذا ممنوع.

- ما الذي تعنيه بكلمة ممنوع؟ قال المصوِّر ذلك وقد أنزل عين الكاميرا إلى الأسفل وهو يواصل تحديقه في اتجاه الغرب.
- للأسف التصوير بهذا الاتجاه ممنوع.
- ولكنني لا أرى شيئاً.
- أعرف، ولكن ذلك ممنوع.

:تعرف إذن!! ها أنت تقولها بنفسك، تعرف أن لا شيء هناك، ولكنك تمنعني من أن أصوِّر.

- أمنعك لأن هذا ممنوع، لا لأنني أعرف ما الذي هناك.

لم يمض وقت طويل قبل أن يفقد المصوِّر أعصابه ويأخذ بالصياح: سأصوِّر يعني سأصوّر ولا أحدَ يستطيع أن يمنعني.

- أنا أستطيع أن أمنعكَ. جاء الصوتُ حازماً، وحين التفتَ الاثنان إلى مصدره، تبيّن أن قائله هو ذلك الشرطي الذي زاره في البيت، وتبعه هو في الشارع، وجاءه في الليل و...

- الحمد لله. لقد أتيتَ في وقتك. قال رشيد النّمر.

- دائما أجيء في وقتي. ردّ الشرطي بغضب.

- لقد أصرَّ على التقاط صور لهذا الاتجاه.

- الغرب؟!!

- نعم. هذا الاتجاه، رغم أنني حذَّرته وأوضحتُ له أن هذا ممنوع.

أخذ الشرطي نفساً عميقاً. دار حول نفسه ثلاث دورات متتالية، مُحاولاً لَجْمَ غضبه على ما يبدو، وأمام هذا المشهد القوى تذّكر رشيد النمر أنه رأى مشهداً مشابها فى فيلم (النمر الرابض والتنين المختبئ)، حيث ينتهى المشهد، أو يبدأ!! بانطلاق الممثلة الصّينية الحسناء إلى الأعلى فى حركة لولبية تشبه دوامة الهواء.

بأدب جمٍّ طلبَ الشرطى من المصوّر أن يتبعه بعد توقُّفه عن الدوران، فتبعه بهدوء أثار غيظ رشيد النمر، إلى ذلك الحدّ الذى شعر معه برغبته فى أن يصرخ: ما دمتَ أرنباً إلى هذا الحدّ فلماذا تستأسد علىّ.

وحسنا أنه لم يبُحْ بما فكَّر فيه، وإلاّ لكان الشرطيّ اعتبر ذلك تطاولا فجّاً فى حضرته.

لقاء فى الممر

التقيا وجها لوجه في الممرّ حيث تفوح رائحة الدهان.

ألقى رشيد النمر تحية الصّباح على الدكتور، لكن الدكتور تجاهله تماماً وواصل صعود الدّرج تاركاً لرشيد النمر هبوطه، كما لو أن دوريهما في الحياة قد تحددا.

تسمّر رشيد في مكانه: هل بدرَ مني ما يزعجكَ أيها الجار؟

عندها توقف الدكتور. تسمّر في مكانه إلى ذلك الحد الذي أحس معه رشيد النمر أن الدكتور مات. صعد الدرجات القليلة التي تفصلهما، واستدار حتى بات أمامه. حدّق في وجهه، لم يكن هنالك ما يشير، ولو من بعيد، أنه مات. لكن عينيه كانتا تحدِّقان في مكان آخر، بعيد.

– هل بدر مني ما يزعجك أيها الجار؟ هل نسيتَ أنني تبعتكَ حتى غوانتنامو!

– لا. ولكن كان عليك أن تأخذ بنصيحتى المتعلِّقة بالأقفاص. إلا أنك ضيعتَ الفرصة. ضيعتَها تماماً. ومن عادتى أن أستاء من الجار الذى لا يسمع الكلام كما أستاء من الطالب الذى لا يسمع الكلام والابن الذى لا يسمع الكلام. مفهوم؟!!!

– ماذا تعنى؟

– لقد بلغنى عَبْر معارفى، وهم كثرٌ لحسن الحظ، أنه سيتم سحبُ جميع الأقفاص القديمة وسيجرى طرْحُ جيل جديد .

- وما الجديد في الجيل الجديد؟

- اقتربْ.

اقتربَ رشيد النمر مغلقاً أنفه بسبابة وإبهام.

همس الدكتور: إنها أقفاص لا تدخلها الشمس!

- لا تدخلها الشمس؟!!!

- اخفضْ صوتكَ. نعم. لا تدخلها الشمس.

- وما الذي يؤرقكَ في هذا؟

- يؤرقني أنّ لديَّ فائضاً من الأقفاص القديمة التي يصعب تصريفها.

- لا أستطيع إلاّ أن أحسَّ معك كجار، صدِّقني.

- إذا كنتَ تحسّ فعلاً! فيمكنك أن تشاركني في تجارة الأقفاص.

- الجديدة؟

- لا. القديمة.

صمت

- ولكن ذلك غير منطقي.

- ما الذي تعنيه بكلامك هذا؟

- لا شيء.

الزعيم

أشرع الباب الزجاجي للشرفة، فلاحظ لأول مرَّة بضع قطرات جافة من الدم التي قد يكون فاته أن يزيلها منذ ذلك الليل، لكنه وجد نفسه مع المفاجأة الجديدة وجهاً لوجه.. كان ثمة عصفور بالحجم الطبيعي، عصفور مثل ذلك الذي ذبحه يتطلّع إليه بعينيه الصغيرتين ويرجوه شيئاً ما. تجمَّدَ في مكانه، وقد أغلق أذنيه وأغمض عينيه، منتظرا انفجاره... لم ينفجر.

فتح عينيه بسرعة، رآه واقفاً لا يتزحزح. تراجع بخطى وجِلَة صامتة، ثم اندفع نحو المطبخ، بسرعة جنونية، ما إن أصبح جسده في الممر. أحضر السّكين الطويلة التي لم تُصنع لذبح عصفور بهذا الحجم وهوى بنصلها اللامع نحو رقبته فقفز رأسه بعيداً عن جسده ثلاث خطوات على الأقل.

اعتدل، وهو غير مُصدّق أنه بات على هذه الدرجة من الاحتراف، شدّ قامته كعسكري يُمنح وساما، وفي الشرفات المقابلة أبصر عدداً لا يُحصى من الرجال المشدودي القامات.

وحين تراجع خطوتين نحو عتمة الداخل. تراجعوا أيضاً.

أقفل باب الشرفة.

أقفلوا أبواب الشرفات.

أسدل الستارة.

أسدلوا الستائر.

أشرع الستارة وقد تذكَّر شيئاً لا يجوز تَرْكَهُ في الشرفة.

أشرعوا الستائر وقد تذكّروا أشياء لا يجوز تَرْكها في الشرفة.

فتح الباب.

فتحوا الأبواب.

انحنى ليتناول العصفور ورأسه

وعيناه تنظران إليهم.

انحنوا ليتناولوا العصافير ورؤوسها

وعيونهم تنظر إليه.

أمسك بالعصفور وألقاه خارج الشرفة.

أمسكوا بالعصافير وألقوها خارج الشرفات.

سمع ارتطاما هائلاً لا يشير إلى أن الذي تم إلقاؤه مجرد عصفور.

سمعوا ارتطامات هائلة لا تشير إلى أن ما تم إلقاؤها مجرد عصافير.

سار إلى حافة الشرفة.

ساروا إلى حافة الشرفات.

حدّق في الشارع.

حدقوا في الشارع.

صرخ من جديد حين رأى جثة آدمية على الرصيف تحت شرفته.

صرخوا من جديد حين رأوا جثثاً آدمية تحت شرفاتهم.

تمالك نفسه.

تمالكوا أنفسهم.

تراجع خطوتين..

تراجعوا خطوتين.

أغلق الستارة.

أغلقوا الستائر.

أشرع باب الشقّة ونـزل الدرجات بسرعة.

أشرعوا أبواب الشقق ونـزلوا الدرجات بسرعة.

توقّف على باب البناية.

توقفوا على أبواب البنايات.

نظر يميناً، شمالا.

نظروا يمينا شمالا.

حدّق في عيونهم.

حدقوا في عينيه.

اندفع نحو الجثة.

اندفعوا نحو الجثث.

صرخ حين رأى الجثة تشبهه.

صرخوا حين رأوا الجثث تشبههم.

انحنى ووضعها على كتفه.

انحنوا ووضعوها على أكتافهم.

استدار عائدا لباب البناية.

استداروا عائدين لأبواب البنايات.

اختفى في الممر.

اختفوا في الممرات.

صعد الدّرج.

صعدوا الأدراج.

بعد لحظات أحسّ بأنه خفيف.

بعد لحظات أحسّوا بأنهم خفيفون.

امتدّتْ يده نحو كتفه الذي تتدلّى منه الجثة.

امتدّتْ أيديهم نحو أكتافهم التي تتدلّى منها الجثث.

لم يجد شيئاً هناك.

لم يجدوا شيئا هناك.

التفتَ محاولاً التأكُّد مما حدث.

التفتوا محاولين التأكّد مما حدث.

وفجأة..

هبطت العتمة..

فلم يعد هناك سوى وقْع الخطى العمياء التي تتحسَّس الأدراجَ صاعدةً.

فكَّر رشيد النمر، فوجد أن أفضلَ ما يمكن أن يقوم به الآن هو أن يضرب الحديد وهو حام.

الإحساس بأنه تحوّل إلى زعيم بثَّ بين جنبيه قوة غير عادية.

انسلَّ من فراشه، ولم يكن مطمئناً سوى لشيء واحد: زوجته لن تستيقظ.

مدّ يده ليتناول ملابسه المُعَلَّقة خلفَ الباب بهدوء، فأصدر الباب ذلك الصرير المزعج. تسمَّر في مكانه من باب الحيطة والحذَر

(حتى الأموات لا تعرف أبداً متى سينهضون)

انحنى وتناول حذاءه، وما بين الحمّام وباب الشرفة خلع منامته وارتدى تلك الملابس القاتمة التي جهّزها قبل النوم، خصيصاً لهذه المناسبة المهمة.

لم يكن باب الشقة يُصدر صريراً مثل ذاك الذي تصدره أبواب غرف النوم. لقد حفيَ لسانُها، زوجته، وهي تطلب منه أن يُزِّيتَ مفاصل هذه الأبواب دون جدوى، وحين اطمأن بأنهم ماتوا، بل وشبعوا موتاً، اكتفى بتزييت باب غرفة ابنته، متناسياً بقية أبواب.

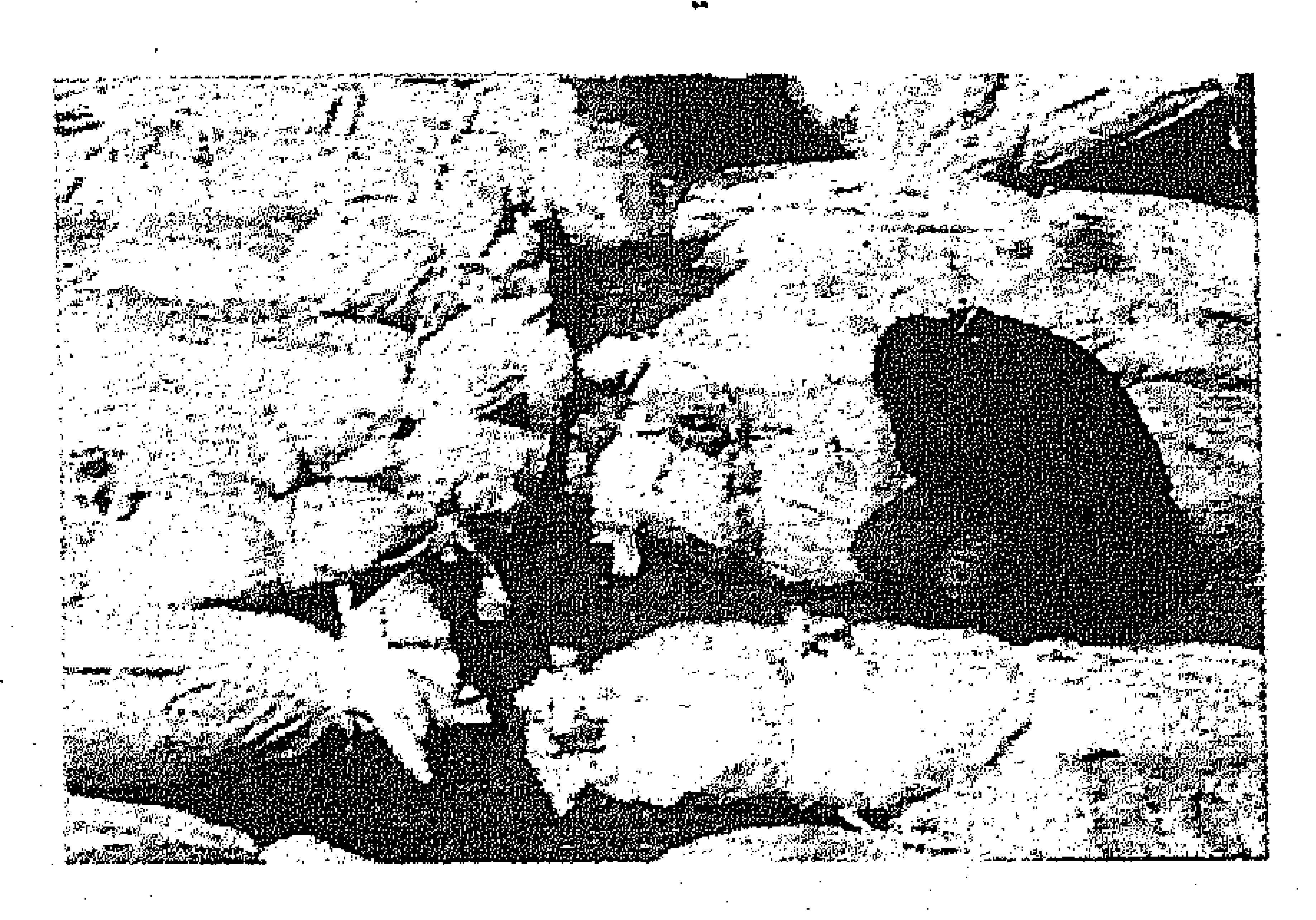
***

لم يكن مركز عمله قريباً، كان عليه أن يُغيِّر الحافلة مرتين قبل الوصول إليه. لكن ذلك لم يكن يزعجه أبداً، إذ كان نوعاً من أنوع التغيير التي تُضفي بعض المذاق على صباحه وما بعد عصره!

يتأمل الوجوه، وهو ينقر برأس مظلته أرضية الحافلة، ويبدأ لعبته

اليومية مُقدِّراً أعمار البشر. وفي النـهاية يصل إلى تلك النتيجة: صحيح أن أعمـارهم متفـاوتة إلى حدٍّ بعيد، إلا أن الواقع يقول إنهم ماتوا في اليوم نفسه.

وهكذا كـانوا بالنسـبـة إليـه لا يمتّون بِصِلَة إلى أولئك الموتى الذين يشاهدهم بالجملة منذ زمن طويل في القنوات الفضائية



بدءا بـ (الجزيرة) مرورا بـ (العربية) ووصـولا إلى (الفضائية الفلسطينية) التي ينظر إليها دائما بحزن بالغ.. فها هي تمتلك موقعَ جناح في الفضاء، دون أن تتمكّن من امتلاك موطئ قدم آمنٍ على الأرض.

***

صاح به السائق: أتريدُ العودة أم النُّزول هنا؟

تلفّتَ حوله،

لم يكن هناك سوى السائق. ومن حُسْن حظ رشيد النمر أنه يترجّل دائماً في المحطة الأخيرة.

هبط.

الفجر شاحب، الشمس لم تزل خلف سلسلة الجبال الشرقية العالية.

كان الموقع كلّه أشبه بحفرة عملاقة خلَّفَها نيزك رهيب أصاب الأرض منذ ملايين السنين (الجبال من كل جانب؛ وكما تشرق الشمس متأخرة عن موعدها في قرى وبلدات ومدن أُخر فإنها تغيب قبل موعدها الذي تغيب فيه في قرى وبلدات ومدن أُخر).

لقد تحيَّن طقساً صافياً في شتاء بدا أطول من المعتاد، تتبَّعَ النشرات الجوية في غير محطة أرضية وفضائية إلى أن اطمأنَّ أن ثمة إجماعاً على أن الأيام التالية مشمسة.

وصل المركز، وبيده كيس بلاستكي أسود يضمُّ قميصاً وبنطالاً باليين، وكان قد اشترى في اليوم السابق أربعة كيلو غرامات من الإسمنت. بعد أن قَدَّمتْ له تلك القطراتُ القليلة التي تسرَّبتْ من السّقف الذّريعة الكاملة لصعود السطح.

توجه إلى كيس الإسمنت، وهالَهُ أن كمية، يمكن أن تصل إلى النصف، قد اختفت!!

وقبل أن يعدل قامته، جاءه الصوتُ: أرحناك من هذه المهمّة.

التفتَ بسرعة، إلى ذلك الحدّ الذي أوشك أنفه أن يرتطم بأنف الشرطي.

– أصلحناه.

– وكيف عرفتم بأن السطح كان بحاجة للصيانة؟

– لأنك اشتريتَ الإسمنت. لا أحد يشتري الإسمنت إلا ليُصلِح جداراً ما، سطحاً ما، أرضية ما. أليس كذلك؟

– أجل.

– أم أنك اشتريته لتسُدَّ أذنيك؟

- معاذ الله!!

- إنها المرة الأخيرة التي يمكن أن تأخذ فيها قراراً مثل هذا على عاتقك. إنني أحذِّركَ.

- حاضر.

- أتعرف ما الذي غفر لك هذه الحماقة؟

- لا.

- الذي غفر لك هذه الحماقة هو معرفتنا بأنك كنتَ الأكثر حزماً مع العصفور.

***

بعد أيام وجد أن أفضل طريقة لمعرفة ما في الغرب أن يعود ليتجوّل هناك على قدميه، ولم يكن في الأمر ما يثير الشُّبهة، فهناك شوارع وبنايات، وأولاد يتصايحون وربّات بيوت يتبادلن الأحاديث وباعة متجولون و و و و و و و و و.......

تجوّل.

لم يجد شيئاً.

لكنه في طريق عودته صادف الرجل العجوز، الرجل العجوز الذي تجاهله عمداً.

تبع رشيد النمر الرجل العجوز، وبصعوبة استطاع اللحاق به. كان يائساً، فهو يعرف أنه لن يعترف له بشيء، وربما هو نفسه لا يعرف شيئاً. لكنّه قرر استخدام تلك الطَّلقة الأخيرة التي بقيتْ في جعبته.

حثّ خطاه ما استطاع إلى أن تجاوز الرجل العجوز واستدار فجأة معترضاً طريقه.

عمَّ الصّمت وقد التقتْ العيون.

– لا أريد أن أسألكَ سوى سؤال واحد.

– تفضّل.

– متى بدأتَ العمل في المركز؟

– ها قد سألتَ السؤال!!! هل تسمح لي بمواصلة طريقي إذن؟!

– لكنك لم تُجبني.

– لأنك لم تطلب إجابة، بل طلبتَ السّماح بأن توجه لي سؤالا!

– أعتذر. هل بإمكانكَ أن تجيبني؟

تلفَّتَ الرجل العجوز حوله، لم يكن خائفاً، وهذا ما طمأن رشيد النمر.

– بعد الحرب الأولى بقليل. بعد الحرب الأولى.

– ومتى صدر قرار منع التصوير؟

– لقد طلبتَ إجابة وها أنت تريد اثنتين!! أخذ نفَساً عميقاً وأجاب: بعد الحرب الثانية.

– ألم يصدُرُ أيّ قرار آخر يُلغي القرارَ الأول؟

– ها أنت تريد إجابة ثالثة. هل تلاحظ؟ ولكن لا بأس، سأعتبرها الأخيرة. ليسَ في عهدي. هل صدَرَ في عهدكَ قرارٌ من هذا النوع؟

– لا. وهذا ما يحيّرني. ولكن ما الذي يوجَد هناك، ولا يُسْمَح لأحد بتصويره؟

– ها أنت تطلب إجابة رابعة. سأعتبرها ما بعد الأخيرة!!

– أرجوك.

– لقد بحثتُ بنفسي. قال الرجل العجوز. اشتريتُ بوصلة، صعدتُ الطاولة، واشتريتُ أربعة كيلو غرامات من الإسمنت بحُجَّة إجراء صيانة للسطح، وفاجأني الشرطي بأنهم أصلحوه وحذَّرني من تكرار الأمر دون

العودة إليهم وتجوَّلتُ كثيراً في هذا المكان الذي أحادثك فيه الآن، ولم أر شيئاً.

كان يدركُ أنه لن يحتمل أيَّ سؤال آخر، فقد باتَ يتحدّث وكأن صبره قد نفد. لكن المفاجأة التي حدَثَتْ أن الرجل العجوز مال نحو أذنه وهمس: إذا أخبرتك، هل تعدني بأنك لن تعترض طريقي بعد اليوم؟

- أعدك.

- حاول إذن أن تتذكر نهاية حلُمكَ!!

- أي حلم؟

- الذي ظهرتْ يداك في نهايته.

- وكيف عرفتَ؟

- هل تتذكر الكاميرا التي دارت نصف دوْرَة وصعدتْ للسطوح؟

- ....

- هل تتذكر المشهد الأخير؟

- ....

- منذ ذلك اليوم لم يعد يُسْمَحُ لأيّ كاميرا أن تصعد للسطح.. هل فهمت؟

مدَّ الرجل العجوز يديه، وقد حشر مظلته الموردة تحتَ إبطه الأيسر، فارتطم طرفها بمظلة رشيد النمر، وهمس: ألم تلاحظ بعد بأنهما يشبهان يديك.

حدّق رشيد النمر في اليدين الهرمتين بعينين فزعتين، وعند ذلك وجد قامته تبتعد من تلقاء نفسها مُفسحةً للرجل العجوز الطريق..

في حين تسمّر رشيد النمر مكانه يتابعه بعينين بلا جفنين؛ وشبه غائب عن الوعي ظلَّ يراقب مظلته وهي تموج في البعيد.. إلى أن اختفى.

العاصفة

قبل أن يصلَ الشارع الرئيس، أدرك أن ثمة أمراً غير طبيعي يحدثُ: كانت العربات تسير مسرعة وكأنها هاربة من شيء ما، ولشدّ ما أثار انتباهه أن مسّاحات الزّجاج كانت تتحرك حركتها النصف دائرية المعروفة بأقصى سرعاتها، وقبل أن ينظر إلى السماء فتح مظلّته وبدا مستعدّاً تماماً لأي مفاجأة.

لم يسمع صوت ارتطام أيّ نوع من القطرات بقماش المظلّة. وأحس أنه لا بد أن يكون مجنوناً كفاية كي ينظر إلى السماء ويُفكِّر بالمطر في شهر لاهب كهذا.

– قد يكون النّدى.

– ولكن أي ندى أيضاً؟

– الرطوبة ربما؟

– أي رطوبة؟

ثم فجأة، راح يُميّز ذلك الاختلاف العميق بين أصوات محركات السيارات والفرقعات، التي بدتْ مألوفة.

كان أشدّ رعباً من أن يقطع الشارع في ظلِّ ذلك الاندفاع المجنون للعربات، أشدّ رعباً من المرة الأولى في ذلك الصباح التي سقطتْ فيه قطرةُ دم من السماء وتلتْها أخرى ورأى بأمِّ عينه كيف تحوّل ريش العصفور إلى سحابة، ظلَّ يحسّ بأنها تسير معه، تظلله، حتى وصوله إلى باب المركز الإعلامي.

لكن الأمر لا يمكن أن يستمر إلى ما لانهاية.

عزم أمره على أن يقطع الشارع مهما كان الثمن. تحيَّن فرصة وجود ذلك الفراغ بين سيارتين متتابعتين واندفع. وحين وصل إلى الجزيرة الصغيرة التي تفصل المسْرَبَين، تأكّد أن عمراً جديداً قد كُتب له. فقد أحسّ بالطريق زَلِقاً تحت نعليه بحيث كان يمكن أن يجد نفسه بسهولة تحت عجلات هذه السيارات التي لا يمكن أن يكون التوقّف أمراً ممكناً لها مع هذا الاندفاع.

وعبرتْ رأسه فكرةٌ طائشة: ما الذي كان يمكن أن يحدث لأستاذ علم الاجتماع لو كان مكاني؟

ابتسم.

ولعن نفسه.

- مَنْ يبتسم في موقف كهذا؟

حين رفع قدمه محاوِلاً التقدُّم خطوة للأمام بعد التقاطه لأنفاسه، خُيّل إليه أن حذاءه قد أصبح ثقيلاً.

نظر إليه. كان موحِلاً تماماً.

خيّل إليه أنه رأى ما يشبه الدّم.

عمَّ الصّمت فبدت العرباتُ المندفعة حوله مثل كرات مجنونة متطايرة بلا صوت. وفي لحظات انعدام السمع هذه التي أصبحتْ فيها أصواتُ محركات السيارات بعيدةً، بدأ يلتقط شيئاً من تلك الفرقعات التي كانت تتقافز بين أغصان الأشجار، كان الأمر أشبه ما يكون بفرقعات قويّة لحبات ذُرة عملاقة.

وانفجرتْ عاصفةٌ عكّرت المشهدَ أكثر.

تيبَّس مكانه ملتفّاً على نفسه، وإذ بات على يقين أن العاصفة تراجعتْ، ارتفعتْ يداه نحو أذنيه خضّهما بقوّة، نحو عينيه فركهما بقوة أقل، وحين استعادهما، كانت أصابعه غارقة بذلك الأحمر اللزج.

حدّق في ملابسه، كانت مغطاة بالريش الملتصق بثيابه ببقع الدّم.

بصعوبة قطع الشارع من جديد، عائداً. انعطفَ نحو شارع البناية الـ Dead End ، صعد الدرجات بسرعة نسيَ معها رائحة الدهان اللاذعة المُنْذرة بعدم جفافه، وجد يده تلتصق بحديد الدرج. انتزعها بصعوبة، وواصل الصّعود.

تمنّى لو أن للبناية مصعداً مثل بقية البنايات حوله، طرد الفكرة، ماذا لو صعد أحد الجيران معي وأنا على هذا الحال. على الأقل، لن يرى الكثير وأنا أجتازه مسرعاً فوق الدرجات.

أشرع الباب بسرعة، قطع الممرّ بسرعة، اتجه للحمام، وقبل أن يدخل، خُيِّل إليه أنه سمع غناء عصفور ما، على الشرفة، ولم تَخُنْه أذناه، فما إن نظر إلى هناك حتى رآه واقفاً على ذلك القضيب الحديدي النابت من حافة الشرفة.

زجَّ جسده داخل الحمام، في حين بقي رأسه في الخارج بعينيه المشرعتين اللتينَ راحتا تنتظران بفزع اللحظةَ التي سينفجر فيها العصفور، لكن ذلك لم يحدث، إذ فجأة طار مخلِّفاً صدى أغنيته متماوجاً على حافة الشرفة.

خط النهاية

مرَّ ليلان هادئان ونهاران

قابعاً في العتمة كان

حوله أولاده وزوجته، في حين وقفت ابنته تراقب المشهد من بعيد تنظر إليه، زامّة شفتيها، مخترِقَةً روحَه بعينها القوية تلك.

لم يكن ثمة ما يُنذر بالخطر

كانت الشرفة خالية من الغناء تماماً؛ هادئة مثل مقبرة للصقور لا تمرُّ بها العصافير ولا يحطُّ على شواهدها الباسقة الحمَام.

لكن ذلك لم يدُم طويلا

فجأة سمعوا غناءً

(أو هكذا خُيِّلَ إليهم)

فتناثروا (إلاّ ابنته) كما لو أن شخصاً فزِعَاً صاح في قاعة للسينما (حريق).

تناثروا..

وقد وجدَ فيما بعد صعوبة كبيرة في العثور عليهم، رغم أن الشّقة لم تكن تنتمي للشقق التي يمكن أن يضيع فيها أحد.

إلا أنه كان فَرِحاً بما حدث، إذ بقدراتهم الذاتية، وبعض المساعدة منه، استطاعوا أن يطوّروا غريزة البقاء لديهم، وباتوا مثل كلِّ كائنات الله المحظوظة التي تستطيع الإحساس بالزلازل قبل وقوعها.

– ليتهم كانوا يملكون هذه الغريزة الغالية في حياتهم. قال لنفسه.

وتذكّر كارثة (تسونامي) التي لم يَمُتْ فيها حتى فيل واحد.

– أيّ نعمة عظيمة هذه حين يكون المرء قريباً من قلب الله مثل أي ذئب أو فيل!! أضاف.

حين لم يجدهم ذهب للشرفة، متجاوزاً ابنته، حاملا مظلّته المورّدة. فتح الباب بحذر خائفاً أن يباغته العصفور فينفجر أو يدخل البيت.

لم يبصر شيئاً.

خرج وتأمّل الشارع، فرأى الرجال هناك في الشرفات، مظلاتهم في أيديهم، يتأمّلون الشارع ويعبّون كميات هائلة من الهواء، مثله، لكنه لم يكن متأكداً من أن استهلاك مثل هذا القدر من الهواء أمرٌ محمودٌ أم مذموم. وحاول أن يتذكّر إنْ كان ثمة بيان رسمي صدَرَ بهذا الشأن. لم يتذكّر.

(أن يتأكد فذلك يعني أن تكون ممرات الهواء في صدره أكثر أمناً)

كانت فرصةً استثنائية له، إطالةُ الوقوف في الشرفة.

حيث الهواء بارد والشمس لم تصل، بعدُ، بسبب ارتفاع العمارات المقابلة.

وكما لو أن المدينة كلّها كانت تنتظر خطوته التالية، ظلَّ الرجال في شرفاتهم، ينتظرون الحركة التالية التي ستصدر عنه.

متأخراً اكتشف انتظارهم هذا، عندما رفع رأسه إلى الأعلى، ورآهم يرفعون رؤوسهم إلى الأعلى. أنزل رأسه. أنزلوا رؤوسهم.

فتح مظلته فتفتّح وردُها.

فتحوا مظلاتهم فتفتّح وردُها.

أغلقها.

أغلقوها.

وهكذا، أدرك أن العين عليه، وأنه غدا مصدر الوحي لهؤلاء الرجال الذين تحـولّوا إلى جـيش عظيم له دون أن يخطر ببـاله أن يكون في أي يوم من الأيام قائداً في الكشافة.

وتذكر قول الشاعر العربيّ القديم:

أتته الخلافةُ مُنقادَةً

إليه تُجَرْجِرُ أذيالَها

وكان تائهاً في الحقيقة، أكثر منه سكران أو منتشياً بهذا الذي تحقّق على حين غرَّة.

تراجع خطوة، تراجعوا.

دخل إلى البيت..

لم يعد هنالك أحد في الشرفات.

***

بعد يومين ظهر أولاده، وظهرت زوجته؛ وبهدوء غير عادي أسرَّ لهم بأنه أصبح شخصاً آخر تماماً، وأن منصبه الجديد قد يضطرّه إلى تَرْكِ عمله والتفرُّغ نهائياً لأمور الشرفة.

وبكوا، لأن ذلك يعني أنهم سيرونه أكثر. إلاّ ابنته التي لم تغادر مكانها لحظة.

- أكان عليك أن تحلم؟ قالت زوجته دون مقدمات.

تجاهل تعليقها.

- أكان عليكَ أن تصلَ إلى ذلك الحدِّ من الرّعونة بحيث تُفكِّر في اقتناء العصافير؟ ولكن ما فائدة الكلام الآن؟!!

تجاهل تعليقها.

قال لهم: أنا الآن أمام مشكلة جديدة، فما دمتُ قد أصبحتُ قائداً، رغماً عني، فإن مسؤوليتي تضاعفت.

– وهل كانت لكَ مسؤولية من قَبْل؟

– نعم. وأنتم تعرفونها.

– أن تشتري العصافير وتُطْعِمها للصقر وتدعنا نتشهّى الدجاج لأسابيع طويلة. قالت امرأته، وأضافت بغضب: كلّ نقودنا أنفقتها في شراء العصافير. وانظر الآن ما الذي يحدث.

– إنها تأتي وتغني في الشرفة دون أن نستطيع حتى مشاهدتها. قال ابنه الصغير.

– إنها تغيظك، بل لعلّها تسخر منكَ. قالت زوجته.

وكما لو أن كلامها حمل العصفور من السماء ووضعه على الشرفة، تصاعدَ الغناء بصورة مفاجئة وأكثر علّوا.

حين أشرع باب الشرفة، أُشرعتْ أبواب الشرفات الأخرى.

ولكن، لا شيء.

في الليل أحسّ أنه بحاجة إلى عصفور جديد، عصفور له.. حين يخرج للشرفة يجده هناك. عصفور يمرح فيها بلا قفص، عصفور... ويقْطع له عنقه.

حين استيقظ أشرع الشرفة فوجد العصفورَ الذي تمناه هناك. لكنّه أدرك أنه العصفور نفسه الذي ذبحه قبل يومين وألقاه من الشرفة.

لم يجرؤ على تكرار الأمر.

لم يطر العصفور، ظلّ واقفا إلى أن أمسكه، ورأى في الجانب المقابل المشهدَ يتكرر.

أحضر خيطاً بلاستيكياً رفيعاً لا لون له، كالماء الحقيقي، وربط العصفورَ من قدمه، وصرخ به صرخة أفزعته، مُنذراً: إياك أن تُفكِّر بالغناء في هذه الشرفة. إياك.

وسمع الصرخة تتردد.

لأسابيع طويلة هدأ كلُّ شيء، وخُيِّل إليه أن المشكلة كانت في الأقفاص، فكتبَ بخطه الجميل هذه العبارة وألصقها بزجاج باب الشرفة:

> ما دام العصفور في قفص فإنه سيغني
>
> أما إذا كان مربوطا بخيط رفيع لا يكاد يُرى فإنه لن يفعلها

لم يعجبه هذا الاكتشاف،

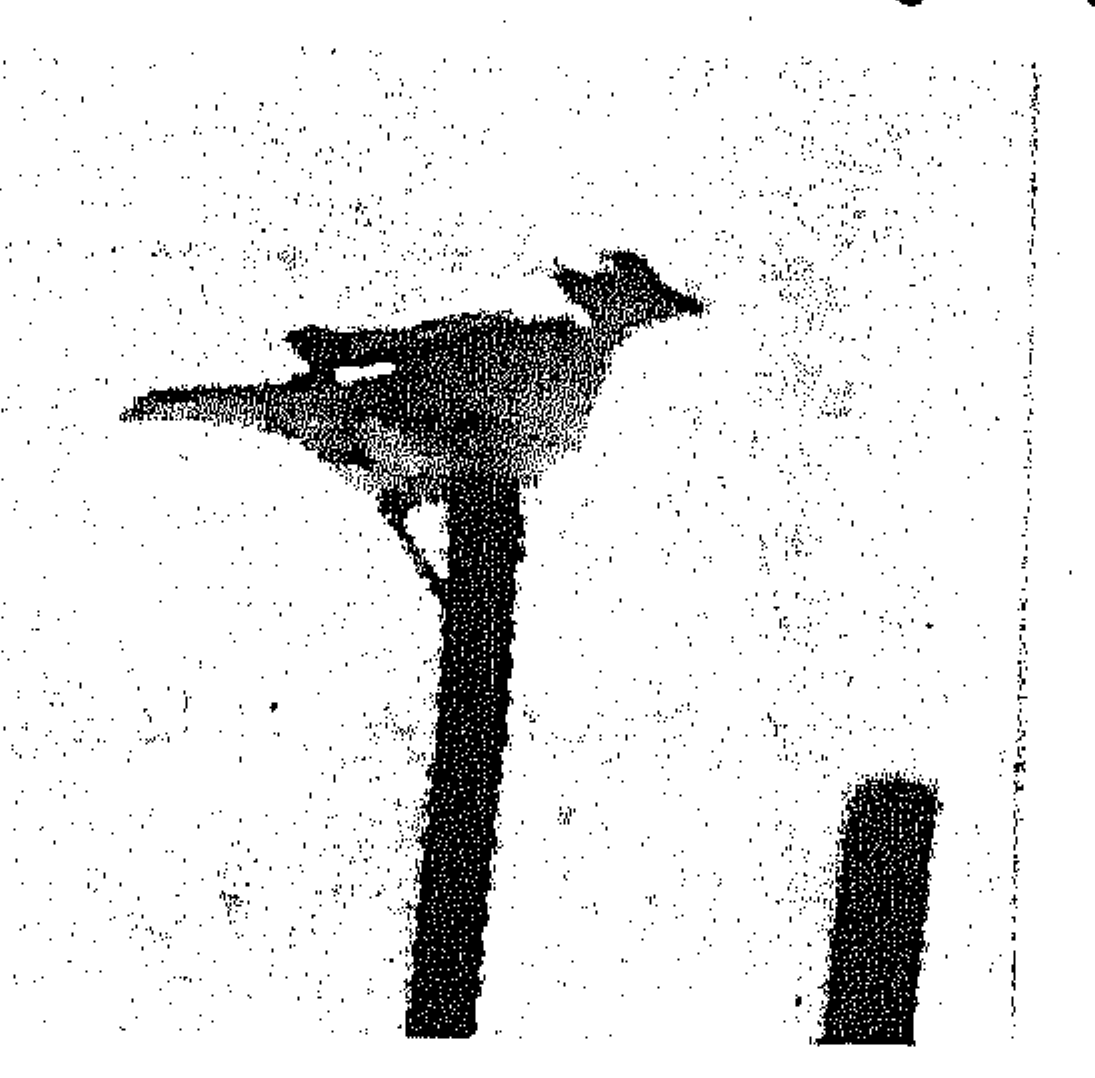
ذكّره بشيء ما يُحبُّ أن ينساه.

..

ذات صباح تغيّر الأمر فجأة، سمعوا غناء هائلا لم يسمعوا مثله من قبل..

غناء جميلاً وصافياً

راح يركض للشرفة،



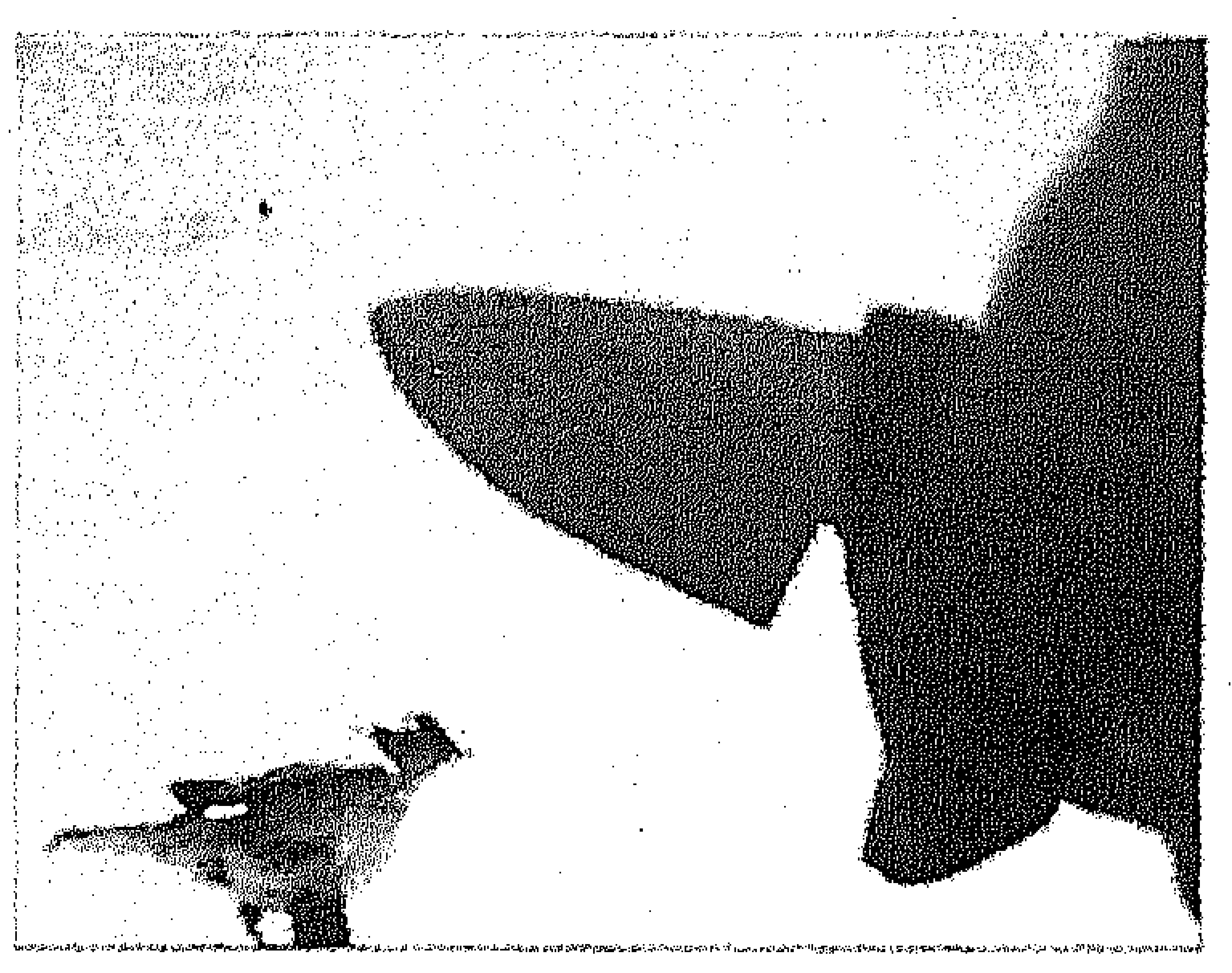
وفجأة وجدَ نفسه وجهاً لوجه مع عصفور جميل، وهكذا بقية الرجال.

كان الأمر هذه المرة مُتعلِّقاً بعصفور واحد لا أكثر.

ولكنه حطَّ على شرفته هو، لا على شرفة سواه.

أدرك أن التحدّي كبير وأن العيون تحدّق به تنتظر اللحظة التالية على أحرٍّ من الجمر. تراجع خطوات، وظلّ العصفور على الشرفة، في حين كان عصفوره المربوط في مكانه المعتاد، بدوره، ينتظر ما ستُسفر عنه اللحظات التالية. اختفى في الداخل، وحين عاد كانت السّكين في يده تلمع

وكانت عيون الرجال تلمَع



هوى بالنصل سريعاً، لكن العصفورَ كان أسرع. طار.

كانت الفضيحة أكبر من أن تُحتَمل، رأى نفسه كورقة تعبث بها ريح هوجاء في يوم مُغبرّ.

تراجع، فتراجع الرجال.

وسرَّه أنهم فعلوا ذلك. هذا يعني أنهم ما زالوا يعتبرونه قائدهم.

كانت الفكرة الوحيدة التي خطرتْ له أن زمن السّكاكين قد ولّى، ما دامت العصافير باتت تتجرأ فتهبط على حواف الشرفات وتغني.

– ما الذي يحدثُ لو مرَّ الشرطي من تحت الشرفة ورأى عصفوراً طليقاً يغني على حافة شرفتي بالذات؟

شبه مجنون كان.

***

قبيل الظهيرة عاد إلى البيت وفي يده ذلك الشيء الطويل الملفوف بعناية. رأته زوجته، قالت: ها قد فعلتَها هذه المرّة دون أطلبَ منك ذلك. كنّا بحاجة لمكنسة فعلاً.

بدأ بتمزيق الأوراق، وعندما ظهرتْ البندقيةُ تراجعتْ ثلاث خطوات نحو الجدار.

وجّه البندقية نحوها.

– هذه تضمن لي أن من يموت لا يمكن أن يعود للحياة من جديد.

– اعقل يا رجل!

– سأقتله، يعني سأقتله.

– ومن هو الذي ستقتله؟

– العصفور.

– ليس أنا إذن؟!!

– لا. أنتِ سأقتلكِ لاحقاً بعدما أقتل العصفور. ثم إنني قتلتكِ أصلا، هل نسيتِ ذلك؟

– لا. ولكنني لا أتذكر!!

– لن أجادلكِ الآن. لقد أمضيتُ العمر وأنا أجادلكِ. أما الآن فإن علي أن أُنهي هذه المشكلة.

***

كان الانتظار شاقاً. لكن الصباح أطلّ. الطلقةُ في بيت النار وبندقية الصيد في يده ثابتة.

فجأة.. خُيِّل إليه أنه يسمع أصوات عصافير، غير واضحة تماماً. أشرع باب الشرفة بحذر شديد، وجدَ نفسه مع مجموعة من الفراخ اللحميّة التي خرجتْ للتّو من البيض.

– لم يكن يأتي إلى هنا عبثاً ذلك العصفور اللعين!!

– لم يكن يأتي إلى هنا عبثاً ذلك العصفور اللعين!! ردّدت الأصواتُ الجملة نفسَها في بقية الشرفات.

وعندها قرر ألاّ يغادر الشرفة.

حين أدركوا ما يدور، قرروا، معه، عدم مغادرة الشرفات.

جاءت امرأته، نظرتْ، فرأت الفراخ الصغيرة.

تدفّق ينبوع أمومتها فجأة:

حرام، إنها صغيرة جداً. أنظر إنها (تُصَوْصِوْ)، هل تسمح لي بإرضاعها.

– ماذا؟

– بإرضاعها.

– ومن أين أتتكِ هذه الفكرة العبقرية؟

– من نفسي.

– بل من تلك الصَّحيفة التي تحدَّثتْ عن امرأة أرضعت جِراء الكلاب.

– ولماذا لا أفعل الأمر نفسه؟

– لأن هذه العصافير لا أفواه لها بل مناقير.

– هذا أفضل.

– وهي ليست يتيمة.

– قل إنك لا تريدني أن أرضعها. قل ذلك وسينتهي الأمر.

– لا أريد أن ترضعيها.

– خلاص. انتهى الأمر!!

ابتعَدَتْ.

– أين كنّا؟ همس لنفسه.

تذكّر.

صوَّب بندقيته للسماء،

صوّبوا بنادقهم.

جلس متحفِّزا

فاتخذوا الوضعية ذاتها.

بعد الظهيرة بقليل بدأ هدير أصوات غريبة يقترب..

تحفّز..

تحفّزوا

ولم يكن غرّاً إلى ذلك الحد بحيث يضلله صوت كهذا.

إنها أجنحة.

تحفّز أكثر

وتحفّزوا.

ازداد الهدير ارتفاعاً، فبدأ الخوف يتسللُ إلى قلبه: ماذا لو جاءت الطيور وهاجمتنا مرة واحدة، الطيور التي قتلناها والتي أكلناها والتي قيّدناها من أرجلها و..

(تسونامي مجنون)

وكما لو أن على القائد أن يرى ما لا يراه الآخرون دائماً، أو على الأقل، أن يرى قبْلَهم؛ رأى في السماء ذلك المشهد الرائع الذي لم يكن يتخيّل أنه سيعيش إلى اليوم الذي سيراه فيه.

ألقى البندقية جانباً وراح يصفِّق ويتقافز.

وفجأة، امتلأت الشرفات بالبهجة نفسها.

كانت السماء مغطاة تماماً برفوف أقفاص ملوَّنة لم يروا مثلها من قبل. أقفاص طائرة راحتْ تحطّ على الشرفات وسطوح البيوت وأرصفة الشوارع وساحات المدارس وأكتاف المارة وحافلات النقل العام و.. حتى لم يعد هنالك أي مكان يتسع لها.

وعلى شرفته حطّتْ عدة أقفاص لا يخفى جمالُها.

– شو في؟ صاحت امرأتُه من الداخل. وحين لم يُجِب نهضتْ وراحتْ تسير نحو الشرفة يَتبعها أولادها. وعندما وقعت عيناها على المشهد صرختْ، فقذف فمُها غيمة هائلة من الدُّخان الأسود، فرأى ذلك الاصفرار المريض لأسنانها الكبيرة المحاطة بلحم لثتها المهترئ.

– هذا لي. قالت وهي تُشير إلى قفص ضخم مزيّن بطريقة فريدة.

– لا. إنه لي. قال لها بحزم.

– بل لي، فأنتَ طوال عمرك كنتَ تحصل على أفضل الأقفاص.

– بل لي.

وحانت منه التفاتةٌ إلى الشرفات المقابلة فرأى القيامة قائمة.

نظر إلى ابنته، كانت تحدِّق في عينيه مباشرة، وفجأة تراجعتْ خطوتين ثم أدارتْ وجهها، عاقدةً يديها خلْف ظهرها؛ في حين راح أولاده يتقافزون

فرحين برؤية الأقفاص المُحلّقة، الأقفاص التى غمرتْ كلَّ شىء.

حميت المعركة أكثر. وظلَّ رحاها يدور حتى هبط الليل.

بعد ذلك عمّ الصّمت.

***

ضوءُ باهرٌ أخرسُ ينبثق من قلب الصمت.. ضوء باهر حادٌّ مثل عماء خاطف يستمر للحظات طويلة، ثمَّ:

عتمة....

***

صرخَ: قولي شيئاً..

– ماذا تقول؟!!

صمتٌ....

صرخت: قُلْ شيئاً..

– ماذا تقولين؟!!

أغنيــــة النهـــاية

أقفـاصٌ طائرةٌ عـبرتْ من خمسِ جـهات، حطتْ فوقَ سطوح الإسمنت، انتشرتْ مثل العشبِ الأسود، غنّتْ، أقفاصٌ ولها أجنحة لا يشـبـهـهـا شيءٌ، أقـفـاصٌ ترقصُ، تتـراكضُ، تغـفـو وتنـامْ. تملأ برَّ الصّحو.. وسائدُها الأحلامْ. نامى يا امـرأتى ثمةَ قفصٌ يضحكُ فيكِ وقـفص يمرحُ كالنّسـمـات هنا ما بينَ جدائل شعرك، هذا الأبيـض مثـل الغيمْ. نـامى يا امرأتى بين النومِ وبينِ النومْ. أو مـثل النّدمِ الأعمى فى صفحات الدَّمْ. نامى ثمة أقفاصٌ تحرسُ أجملَ ما فى صدركِ من أشجار. أقفاصٌ تحلُمُ عنا بالأمطارْ. أقفاصٌ تكتبُ شعْراً وتفيضُ مـواويلَ وكالغزلان هنا تتقافزُ عبر السَّهل وفى الجبل الأجردِ تتلَفَّتُ كالشتّارْ. لم يعـرفْ أحـدٌ منا كـيف أتى أولُ قـفص أو كـيفَ اخـتـار الشـارع أو إنتـخبَ البيتْ. ثمـة شىءٌ فى القـفص الطائر لا يُدركه الفرحُ ولا يُدركه الموتْ. شىء يتهجّى اسمى وشفاهَكِ ويُعيد حكايتنا المنسيّة وبلا صـوتْ. قـفصٌ تتـذابحُ خـارجَ بوابتـه الطيـرُ ويفـتـرسُ الحسّون الحسّونْ. قـفصٌ كم يُلغى الفـرقَ الأزلىَّ المجنونْ. مـا بين الفاتنِ والمفتون. أخشى أن ترحلَ يا امـرأتى هذا الأقفـاصُ وتتـركُنا لرفوفِ الدورىِّ الباكيةِ وأفئدةِ الغربـانْ. ماذا يتبقّى منا إن رحلتْ يا امـرأتى وتعـرَّى الإنسـان؟ مـاذا سنقـول لإبنتنا: (هجـرتك

الأقفاصُ ولم تتلفَّتْ نحو ربيعك هذى القضبانْ) . أقفاصٌ طائرة وتهاجر من بدءِ الخلْقِ وتعبُرُ حقلَ الورْد كما تعبر يومَ الطوفانْ. تتنزّلُ مثل الشّعرِ علي قلب الأحزانْ. أقفاص تأكلُ حيناً، تشربُ، تلهو تتراكضُ منِ أول هذا الشّارع حتي أطراف الصحراءْ. أقفاصٌ فى داخلها أنهارٌ تجرى وسماءٌ، تتلوّي، حمراءْ.

ضيّعتُ مساء الأمس طريقى للقفص المنذورْ.
بكيتُ ليمنحَنى أحدٌ قفصاً مهجورْ.
قالوا لن تجدَ هنا شيئاً مهجوراً غير الدّورْ..
وجناح العُشُبِ الأخضرِ.. وغناءِ العصفورْ

ليلا . . بعد شهور

مال الصغير نحو أذن أبيه وهمس: لقد حذرتك، لقد قلتُ لكَ بوضوح، لا تضعنا فى موقف حرج كهذا، لكنك لم تسمعنى، لو اشتريت لنا كلباً.. كنت ارتحت.... وأرحتنا!!!

أحــــدث إصـــــدارات روايات الهـــــلال

العدد	اسم الرواية	المؤلف	التاريخ	الثمن بالجنيه
٦٦٩	الخالدية	محمد البساطى	سبتمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٠	الرواية	د. نوال السعداوى	أكتوبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧١	مواعيد الذهاب إلى آخر الزمان	عبده جبير	نوفمبر ٢٠٠٤	٦,٠٠
٦٧٢	قمر على سمرقند	محمد المنسى قنديل	ديسمبر ٢٠٠٤	٨,٠٠
٦٧٣	غواية الإسكندر	محمد جبريل	يناير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٤	عاشق الحى	يوسف أبو رية	فبراير ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٥	يا قلبى لا تحزن	منال القاضى	مارس ٢٠٠٥	٥,٠٠
٦٧٦	أبقى الباب مفتوحا	فؤاد قنديل	أبريل ٢٠٠٥	٦,٠٠
٦٧٧	لو لم يكن اسمها فاطمة	خيرى الذهبى	مايو ٢٠٠٥	٧,٠٠
٦٧٨	محمد ياصقرى	بشار كمال	يونيه ٢٠٠٥	٨,٠٠
٦٧٩	خريف الجنرال	حمدى البطران	يوليو ٢٠٠٥	٩,٠٠
٦٨٠	دراكيولا	برام ستوكر	أغسطس ٢٠٠٥	٦,٠٠

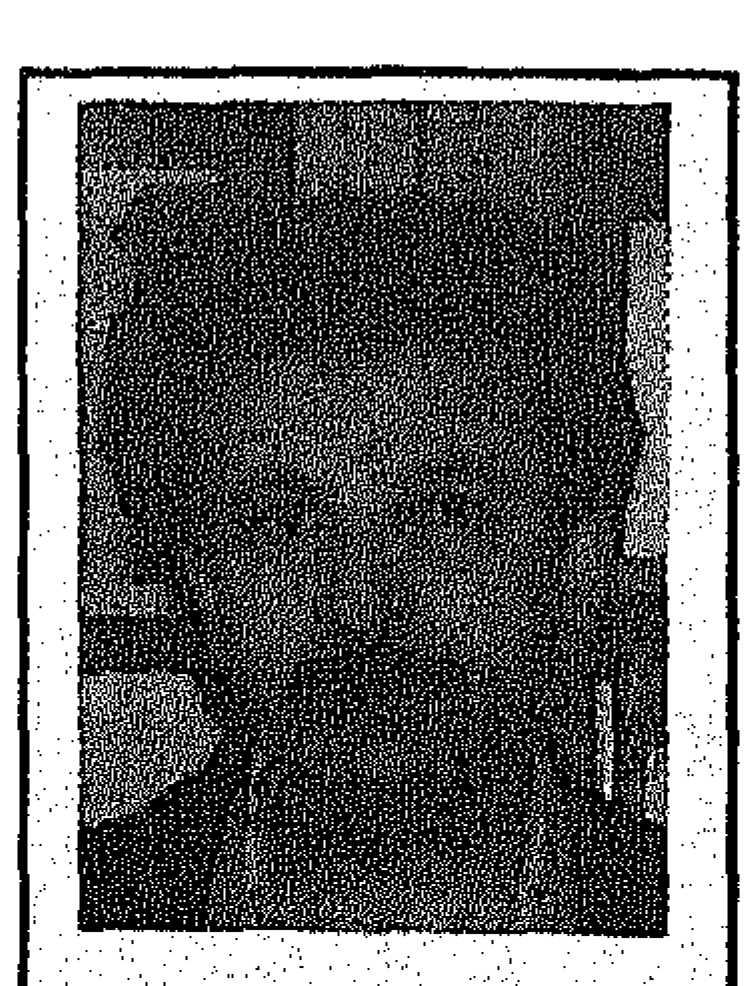
رقم الايداع : ٢٠٠٥/١٤٨١٣
I.S.B.N
977-07-1152-7

هذه الرواية

يحاور هذا العمل الروائى حالة الاغتراب المُرَّة التى باتت تحتلّ مساحة شاسعة فى الروح العربية منذ حرب الخليج الأولى ، مروراً بالظلال القاسية لما آل إليه الحال الفلسطينى ، وصولاً إلى مرحلة ما بعد ١١ سبتمبر واحتلال العراق.

تجتمع فى هذه الرواية المضادة ملحمية (بريخت) وعبثية (بيكيت)، وتندفع الكتابة الروائية إلى منطقة جريئة لم يسبق للرواية العربية الحديثة أن ذهبت إليها.

ولعل دعوة المؤلف المستمرة لتلاقى الفنون ومعايشته لها - تتحقق بصورة أصيلة على عدة مستويات تتمثل فى اقتراح سرد روائى مختلف تماماً يحتضن القصيدة والمشهد المسرحى والسيناريو السينمائى والحكاية الغرائبية والصورة الفوتوغرافية واللوحة والصورة الصحفية والخبر.. وهو بذلك يعمل على كَسْر الشكل الروائىّ التقليدى والحديث فى آن، وكَسْر مفهوم بناء الشخصية باللاشخصية، وكسر الفن بالفن كى تكون ثمة مساحة فى هذا (العبث الملحمى) الذى نعيش ، يمكن من خلالها محاورة واقع جديد لم يعد ممكنا محاورته إلا بالذهاب إلى منطقة الحدود القصوى.



إبراهيم نصرالله

□ مواليد عمّان من أبوين فلسطينيين اقتلعا من أرضهما عام ١٩٤٨، وعاش طفولته فى مخيم (الوحدات) للاجئين الفلسطينيين قرب مدينة عمان.

□ أصدر ثلاث عشرة مجموعة شعرية، من بينها: «المطر فى الداخل»، حطب أخضر»، «باسم الأم والابن»، «مرايا الملائكة وثلاثية عواصف القلب».

وأصدر عدداً من الروايات من بينها:

«برارى الحُمّى»، «مجرد ٢ فقط»، «حارس المدينة الضائعة».

منذ عام ١٩٨٥، يعمل على إنجاز مشروعه الروائى «الملهاة الفلسطينية» الذى صدر منه حتى الآن خمس روايات: «طيور الحذر»، «طفل الممحاة»، «زيتون الشوارع»، «أعراس آمنة»، «تحت شمس الضحى».

□ ترجم عدد من أعماله الروائية والشعرية إلى عدد من اللغات الأجنبية.

□ نال سبع جوائز عن أعماله الشعرية والروائية من بينها:

جائزة عرار للشعر ٩١ ، جائزة تيسير سبول للرواية ١٩٩٤م ، جائزة سلطان العويس للشعر العربى ١٩٩٧م.

روايات الهلال

عدد أكتوبر

٢٠٠٥

دق الطبول

رواية جديدة

للأديب المصرى الكبير

محمد البساطى

العيسوى

أدبيات

نبع الآداب والثقافة المعاصرة



طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة - المطابع : ٨، ١٠ شارع المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع : ١٠، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت : ٦٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع - ٤ شارع بدوى محرم بك - الإسكندرية .